رسائل في الحكمة

أبو حامد الغزالي

رسائل في الحكمة

أبو حامد الغزالي

رسائل في الحكمة

تصميم الغلاف: عبد الرحمن الصواف

© الكرمة للنشر، 2018

رقم الإيداع: 10382 / 2018

أيها الولد

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على نبيه محمد وآله أجمعين.

اعلم أن واحدًا من الطلبة المتقدِّمين، لازَم خدمة الشيخ الإمام زين الدِّين حُجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي رحمه الله، واشتغل بالتحصيل وقراءة العلم عليه، حتى جمع دقائق العلوم، واستكمل فضائل النفس.

ثم إنه تفكَّر يومًا في حال نفسه، وخطر على باله فقال: «إني قرأت أنواعًا من العلوم، وصرفت ريعان عمري على تعلُّمها وجمعها، والآن ينبغي أن أعلم أي نوعها ينفعني غدًا ويؤنسني في الآخرة، وأيها لا ينفع حتى أتركه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع»».

فاستمرت له هذه الفكرة حتى كتب إلى حضرة الشيخ حُجة الإسلام محمد الغزالي رحمه الله تعالى، استفتاءً، وسأل عنه مسائل، والتمس منه نصيحة ودعاءً.

قال: «وإن كانت مصنفات الشيخ كالإحياء وغيره يشتمل على جواب مسائلي، لكن مقصودي أن يكتب الشيخ حاجتي في ورقات تكون معي مدة حياتي، وأعمل بها مدة عمري إن شاء الله تعالى».

فكتب الشيخ هذه الرسالة إليه في جوابه.

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم أيها الولد المُحب العزيز، أطال الله تعالى بقاءك بطاعته، وسلك بك سبيل أحبائه، أن منشور النصيحة يُكتب من مَعدِن الرسالة عليه الصلاة والسلام، إن كان قد بلغك منه نصيحة فأي حاجة لك في نصيحتي؟ وإن لم تبلغك فقل لي: ماذا حصَّلت في هذه السنين الماضية؟!

أيها الولد

من جملة ما نصح به رسول الله صلى الله عليه وسلم أمتهِ قوله: «علامة إعراض الله تعالى عن العبد اشتغاله بما لا يعنيه، وإنَّ امرأً ذهبت ساعة من عمره في غير ما خُلق له لَجدير أن تطول عليه حسرته، ومن جاوز الأربعين ولم يغلب خيرُه شرَّه فليتجهز إلى النار».

وفي هذه النصيحة كفاية لأهل العلم.

أيها الولد

النصيحة سهل، والمُشكل قبولها؛ لأنها في مذاق متبعي الهوى مُرٌّ. إذ المناهي محبوبة في قلوبهم، على الخصوص لمن كان طالب العلم الرسمي، مشتغلًا في فضل النفس ومناقب الدنيا، فإنه يحسب أن العلم المجرد له سيكون نجاته وخلاصه فيه، وأنه مُستغنٍ عن العمل، وهذا اعتقاد الفلاسفة. سبحان الله العظيم! لا يعلم هذا القدر أنه حين حصَّل العلم إذا لم يعمل به تكون الحجة عليه آكَد، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالِم لا ينفعه الله بعلمه».

ورُوي أن الجُنيد قدَّس الله روحه رُئِيَ في المنام بعد موته، فقيل له: «ما الخبر يا أبا القاسم؟»، قال: «طاحت العبارات، وفنيت الإشارات، وما نفعنا إلا ركعات ركعناها في جوف الليل».

أيها الولد

لا تكن من الأعمال مُفلسًا، ولا من الأحوال خاليًا، وتيقَّن أن العلم المجرد لا يأخذ باليد.

مثاله لو كان على رجل في برِّية عشرةُ أسياف هندية مع أسلحة أخرى، وكان الرجل شجاعًا وأهل حرب، فحمل عليه أسد عظيم مهيب، فما ظنُّك؟ هل تدفع

الأسلحة شرَّه عنه بلا استعمالها وضربها؟!

ومن المعلوم أنها لا تدفع إلا بالتحريك والضرب. فكذا لو قرأ رجل مائة ألف مسألة علمية وتعلَّمها، ولم يعمل بها، لا تفيده إلا بالعمل.

ومثاله أيضًا: لو كان لرجل حرارة ومرض صفراوي يكون علاجه بـ«السَّكَنْجَبِينِ» و«الكَشْكَاب»، فلا يحصل البُرْء إلا باستعمالهما.

گرْمَىْ دُو هَزار بار بيمايي

تَامَىْ نَخُوري نَبَاشَدْتُ شَيدايي(*)

أيها الولد

ولو قرأت العلم مائة سنة، وجمعت ألف كتاب، لا تكون مستعدًّا لرحمة الله تعالى إلا بالعمل لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾، وقوله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (107) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾.

وما تقول في هذا الحديث؟

«بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحَج البيت من استطاع إليه سبيلًا».

والإيمان: قولٌ باللسان، وتصديقٌ بالجَنان، وعملٌ بالأركان.

ودليل الأعمال أكثر من أن يُحصى، وإن كان العبد يبلغ الجنة بفضل الله تعالى وكرمه، ولكنْ بعد أن يستعد بطاعته وعبادته؛ لأن رحمة الله قريب من المحسنين.

ولو قيل أيضًا: يبلغ بمجرد الإيمان.

قلنا: نعم. لكنْ متى يبلغ؟ وكم من عقبة كؤود تستقبله إلى أن يصل؟

وأول تلك العقبات، عقبة الإيمان: أنه هل يَسلم من السلب أم لا؟ وإذا وصل يكون خائبًا مُفلسًا.

وقال الحسن البصري رحمه الله: «يقول الله تعالى لعباده يوم القيامة: ادخلوا يا عبادي الجنة برحمتي واقتسموها بقدر أعمالكم».

أيها الولد

ما لم تعمل لم تجد الأجر.

حُكي أن رجلًا من بني إسرائيل عبَدَ اللهَ تعالى سبعين سنة، فأراد الله تعالى أن يَجْلُوَهُ على الملائكة، فأرسل الله إليه مَلَكًا يخبره أنه مع تلك العبادة لا يليق به دخول الجنة، فلما بلغه قال العابد: «نحن خُلقنا للعبادة، فينبغي لنا أن نعبده». فلما رجع المَلَكُ قال الله تعالى: «ماذا قال عبدي؟»، قال: «إلهي... أنت أعلم بما قال»، فقال الله تعالى: «إذا هو لم يُعرِض عن عبادتنا، فنحن ـ مع الكرم ـ لا نُعرِض عنه، اشهدوا يا ملائكتي أني قد غفرت له».

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حاسِبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا، وزِنُوا أعمالكم قبل أن تُوزَنُوا».

وقال عليٌّ رضي الله عنه: «مَن ظنَّ أنه بدون الجهد يصل فهو مُتمَنٍّ، ومن ظنَّ أنه ببذل الجهد يصل فهو مُستَغنٍ».

وقال الحسن رحمه الله: «طلبُ الجنة بلا عمل ذنبٌ من الذنوب».

وقال: «علامة الحقيقة تركُ ملاحظة العمل لا تركُ العمل».

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الكَيِّس مَن دان نفسه، وعمل لِما بعد الموت، والأحمق مَن أتبَع نفسه هواها وتمنَّى على الله».

أيها الولد

كم من ليلة أحييتَها بتكرار العلم ومطالعة الكتب، وحرَّمت على نفسك النوم؛ لا أعلم ما كان الباعث فيه؟ إن كانت نِيتكَ نيل عرَض الدنيا، وجذب حطامها، وتحصيل مناصبها، والمباهاة على الأقران والأمثال، فويلٌ لك ثم ويلٌ لك! وإن

كان قصدك فيه إحياء شريعة النبي صلى الله عليه وسلم، وتهذيب أخلاقك، وكسر النَّفس الأمَّارة بالسوء، فطوبى لك ثم طوبى لك.

ولقد صدق من قال شعرًا: سَهَرُ العُيونِ لِغَيرِ وَجْهِكَ ضَائعٌ

وبُكاؤهُنَّ لِغَيرِ فَقْدِكَ باطِلٌ

أيها الولد

عِش ما شِئت فإنك مَيتٌ.

وأحبِبْ مَن شِئت فإنك مُفارقُه.

واعمل ما شِئت فإنك مَجزيٌّ به.

أيها الولد

أي شيء حاصل لك مِن تحصيل علم الكلام، والخِلاف، والطِّب، والدواوين، والأشعار، والنجوم، والعَروض، والنحو، والتصريف، غيرُ تضييع العمر بخلاف ذي الجلال؟

إني رأيت في الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال: «مِن ساعة يُوضع الميت على الجَنازة إلى أن يُوضع على شفير القبر يسأل اللهُ بعظمته منه أربعين سؤالًا، أوله: يقول: عبدي... طهَّرتَ منظر الخَلق سنين وما طهَّرتَ منظري ساعة. وكل يوم ينظر في قلبك يقول الله تعالى: ما تَصنع لغيري وأنت محفوف بخيري! أمَا أنت أصمُّ لا تسمع؟!».

أيها الولد

العلم بلا عمل جنونٌ، والعمل بغير علم لا يكون.

واعلم أن علمًا لا يُبعدك اليوم عن المعاصي، ولا يحملك على الطاعة، لن يُبعدك غدًا عن نار جهنم، وإذا لم تعمل اليوم، ولم تَدارَك الأيامَ الماضية، تقول غدًا يوم القيامة: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾، فيُقال: يا أحمق أنت من هناك تجيء!

أيها الولد

اجعل الهمَّة في الروح، والهزيمة في النفس، والموت في البدن؛ لأن منزلك القبر، وأهل المقابر ينتظرونك في كل لحظة متى تصل إليهم. إيَّاك إيَّاك أن تصل إليهم بلا زاد!

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «هذه الأجساد قفص الطيور، وإصطبل الدواب».

فتفكَّر في نفسك: من أيهما أنت؟

إن كنت من الطيور العُلوية، فحين تسمع طنين طبلِ ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾، تطير صاعدًا إلى أن تقعد في أعالي بروج الجِنان، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ».

والعياذ بالله إن كنت من الدواب كما قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، فلا تأمن انتقالك من زاوية الدار إلى هاوية النار.

ورُوي أن الحسن البصري رحمه الله تعالى أُعطِي شَربة ماء بارد، فلما أخذ القدح غُشِي عليه وسقط من يده، فلما أفاق قيل له: «ما لك يا أبا سعيد؟»، قال: «ذكَرتُ أُمنيَّة أهل النار حين يقولون لأهل الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾».

أيها الولد

لو كان العلم المجرد كافيًا لك، ولا تحتاج إلى عمل سواه، لكان نداء الله تعالى: «هل من سائل؟ هل من مستغفر؟ هل من تائب؟» ضائعًا بلا فائدة.

ورُوي أن جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، ذكروا عبد الله بن عمر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «نِعم الرجلُ هو لو كان يُصلي بالليل».

وقال عليه الصلاة والسلام لرجل من أصحابه: «يا فلان... لا تُكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تدع صاحبه فقيرًا يوم القيامة».

أيها الولد

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ أَمرٌ.

﴿وَبِالْأَسْحَار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ شُكرٌ.

﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ ذِكرٌ.

قال عليه الصلاة والسلام: «ثلاثة أصوات يحبها الله تعالى: صوت الدِّيك، وصوت الذي يقرأ القرآن، وصوت المستغفرين بالأسحار».

قال سفيان الثوري رحمه الله: «إن لله تعالى ريحًا تَهُبُّ بالأسحار، تحمل الأذكار والاستغفار إلى المَلِك الجبار».

وقال أيضًا: «إذا كان أولُ الليل يُنادي مُنادٍ من تحت العرش: «ألَا لِيَقم العابدون»، فيقومون ويصلون ما شاء الله. ثم ينادي مُنادٍ في شطر الليل: «ألَا لِيَقم القانتون»، فيقومون ويصلون إلى السَّحر. فإذا كان السَّحر ينادي مُنادٍ: «ألَا لِيَقم المستغفرون»، فيقومون ويستغفرون. فإذا طلع الفجر ينادي مُنادٍ: «ألَا لِيَقم الغافلون»، فيقومون من فُروشهم كالموتى نُشروا من قبورهم».

أيها الولد

رُوي في بعض وصايا لقمان الحكيم لابنه، أنه قال: «يا بُني... لا يكوننَّ الدِّيك أكيسَ منك، ينادي بالأسحار وأنت نائم».

ولقد أحسن مَن قال شعرًا: لَقَد هَتفَتْ في جُنحِ الليلِ حَمامةٌ

على فَنَن وَهْنًا وإني لنائم

كَذبتُ وبَيتِ الله لو كُنتُ عاشِقًا

لمَا سَبَقَتني بِالبُكاءِ الحَمائمُ

وأَزعَمُ أَنِّي هائمٌ ذُو صَبابةٍ

لِرَبِّي فَلا أَبكي وتَبكي البَهائمُ

أيها الولد

خُلاصة العلم: أن تعلم أن الطاعة والعبادة ما هي.

اعلم أن الطاعة والعبادة متابَعة الشارع في الأوامر والنواهي بالقول والفعل، يعني: كل ما تقول وتفعل، وتترك قولَه وفعله، يكون باقتداء الشرع، كما لو

صُمت يوم العيد وأيام التشريق تكون عاصيًا، أو صليت في ثوب مغصوب ـ وإن كانت صورةَ عبادة ـ تأثم.

أيها الولد

ينبغي لك أن يكون قولُك وفِعلُك مُوافقًا للشرع؛ إذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة.

وينبغي لك ألَّا تَغترَّ بشطح الصوفية وطامَّاتهم؛ لأن سلوك هذا الطريق يكون بالمُجاهدة، وقطع شهوة النَّفس، وقتل هواها بسيف الرياضة، لا بالطَّامَّات والتُّرَّهات.

واعلم أن اللسان المُطلَق، والقلب المُطبَق المملوء بالغفلة والشهوة، علامةُ الشقاوة، حتى لا تَقتل النَّفس بصدق المُجاهدة لن يَحيا قلبُك بأنوار المعرفة.

واعلم أن بعض مسائلك التي سألتَني عنها لا يستقيم جوابها بالكتابة والقول، إن تَبلغْ تلك الحالةَ تَعرفْ ما هي، وإلا فعِلمها من المستحيلات؛ لأنها ذَوقية، وكل ما يكون ذَوقيًّا لا يستقيم وصفه بالقول، كحلاوة الحلو ومرارة المُر، لا تُعرف إلا بالذَّوق.

كما حُكي أن عِنِّينًا كتب إلى صاحب له: «أن عَرِّفني لذة المجامعة كيف تكون؟».

فكتب له في جوابه: «يا فلان... إني كنت حَسبتُكَ عِنِّينًا فقط، الآن عَرفتُ أنك عِنِّينٌ وأحمق؛ لأن هذه اللذة ذَوقية، إن تصل إليها تَعرِف، وإلَّا لا يستقيم وصفُها بالقول والكتابة».

أيها الولد

بعض مسائلك من هذا القبيل، وأما البعض الذي يستقيم له الجواب فقد ذكرناه في «إحياء العلوم» وغيره، ونذكر ها هنا نُبذًا منه، ونشير إليه فنقول: قد وجب على السالك أربعة أمور: أول الأمر: اعتقاد صحيح لا يكون فيه بدعة.

والثاني: توبة نصوح لا يَرجع بعدها إلى الذِّلة.

والثالث: استرضاء الخصوم حتى لا يبقى لأحد عليك حق.

والرابع: تحصيل علم الشريعة قدر ما تؤدي به أوامر الله تعالى.

ثم من العلوم الآخرة ما يكون به النجاة.

حُكي أن الشِّبلي رحمه الله خدم أربعمائة أستاذ، وقال: «قرأت أربعة آلاف حديث، ثم اخترت منها حديثًا واحدًا، وعملت به، وخلَّيت ما سواه؛ لأني تأملته فوجدت خلاصي ونجاتي فيه، وكان عِلمُ الأولين والآخرين كله مندرجًا فيه، فاكتفيت به، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبعض أصحابه: «اعمل لدنياك بقدر مُقامك فيها، واعمل لآخرتك بقدر بقائك فيها، واعمل لله بقدر حاجتك إليه، واعمل للنار بقدر صبرك عليها»».

أيها الولد

إذا علمتَ هذا الحديث فلا حاجة إلى العلم الكثير، وتأمَّلْ في حكاية أخرى، وهي: أن حاتم الأصمَّ كان من أصحاب شَقيقٍ البَلخِيِّ رحمة الله تعالى عليهما، فسأله يومًا قال: «صاحَبْتَني منذ ثلاثين سنة، ما حصَّلتَ فيها؟».

قال: «حصَّلتُ ثماني فوائد من العلم، وهي تكفيني منه لأني أرجو خلاصي ونجاتي فيها».

فقال شَقيقٌ: «ما هي؟».

قال حاتم:

«الفائدة الأولى: أني نظرت إلى الخَلق فرأيت لكلٍّ منهم محبوبًا ومعشوقًا يحبه ويعشقه، وبعض ذلك المحبوب يصاحبه إلى مرض الموت وبعضُه يصاحبه إلى شَفير القبر، ثم يَرجع كلُّه ويتركه فريدًا وحيدًا، ولا يدخل معه في قبره منهم أحد. فتفكرت وقلت: أفضل محبوبِ المرء ما يدخل معه في قبره ويؤنسه فيه، فما وجدتُه غيرَ الأعمال الصالحة، فأخذتُها محبوبةً لي؛ لتكون لي سِراجًا في قبري وتؤنسني فيه ولا تتركني فريدًا.

الفائدة الثانية: أني رأيت الخَلق يقتدون أهواءهم، ويبادرون إلى مُرادات أنفسهم، فتأملت قوله تعالى:﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾. وتيقَّنت أن القرآن حق صادق، فبادرت إلى خلاف نفسي وتَشمَّرت بمجاهدتها، وما مَتَّعتُها بهواها، حتى ارتاضت بطاعة الله تعالى وانقادت.

الفائدة الثالثة: أني رأيت كل واحد من الناس يسعى في جمع حطام الدنيا، ثم يُمسكه قابضًا يده عليه، فتأملت في قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ

بَاقٍ﴾، فبذلت محصولي من الدنيا لوجه الله تعالى، ففرَّقته بين المساكين ليكون ذخرًا لي عند الله تعالى.

الفائدة الرابعة: أني رأيت بعض الخَلق يظن أن شرَفه وعِزه في كثرة الأقوام والعشائر، فاعتزَّ بهم. وزعم آخرون أنه في ثروة الأموال وكثرة الأولاد، فافتخروا بها. وحَسِب بعضهم أن العز والشرف في غَصْب أموال الناس وظلمهم وسفك دمائهم، واعتقدَتْ طائفة أنه في إتلاف المال وإسرافه، وتبذيره، فتأملتُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، فاخترت التقوى، واعتقدت أن القرآن حق صادق، وظنَّهم وحسبانهم كلها باطلٌ زائل.

الفائدة الخامسة: أني رأيت الناس يذم بعضهم بعضًا، ويغتاب بعضهم بعضًا، فوجدت أصل ذلك من الحسد في المال والجاه والعلم، فتأملت في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، فعلمت أن القسمة كانت من الله تعالى في الأزل، فما حسدت أحدًا، ورضيت بقسمة الله تعالى.

الفائدة السادسة: أني رأيت الناس يعادي بعضهم بعضًا لغرض وسبب، فتأملت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، فعلمت أنه لا يجوز عداوة أحد غير الشيطان.

الفائدة السابعة: أني رأيت كل أحد يسعى بجِدٍّ، ويجتهد بمبالغةٍ، لطلب القوت والمعاش، بحيث يقع به في شبهة وحرام وبُذل نفسه ويَنقص قَدْره، فتأملت في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾، فعلمت أن رزقي على الله تعالى وقد ضَمِنه، فاشتغلت بعبادته، وقطعت طمعي عمن سواه.

الفائدة الثامنة: أني رأيت كل واحد معتمدًا على شيء مخلوق، بعضهم على الدينار والدرهم، وبعضهم على المال والمُلك، وبعضهم على الحِرفة والصناعة، وبعضهم على مخلوق مثله، فتأملت في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾، فتوكلت على الله تعالى، فهو حسبي ونعم الوكيل».

فقال شَقيقٌ: «وفقك الله تعالى. إني قد نظرتُ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، فوجدت الكتب الأربعة تدور على هذه الفوائد الثماني، فمن عمل بها كان عاملًا بهذه الكتب الأربعة».

أيها الولد

قد علمتَ من هاتين الحكايتين أنك لا تحتاج إلى تكثير العلم، والآن أبين لك ما يجب على سالك سبيل الحق.

فاعلم أنه ينبغي للسالك شيخٌ مُرشِدٌ مُرَبٍّ، لِيُخرج الأخلاق السيئة منه بتربيته، ويجعل مكانها خُلقًا حسنًا.

ومعنى التربية يُشبه فعل الفلَّاح الذي يقلع الشَّوك، ويُخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع لِيَحسن نباتُه ويَكمل رِيعُه.

ولا بد للسالك من شيخ يُربِّيه، ويُرشدُه إلى سبيل الله تعالى، لأن الله أرسل للعباد رسولًا للإرشاد إلى سبيله، فإذا ارتحل صلى الله عليه وسلم فقد خَلَف الخلفاءَ في مكانه، حتى يُرشِدوا إلى الله تعالى.

وشَرْط الشيخ الذي يَصلح أن يكون نائبًا لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه أن يكون عالمًا، إلَّا أنَّ كل عالِم لا يَصلح للخلافة.

وإني أُبين لك بعض علاماته على سبيل الإجمال، حتى لا يدَّعي كل أحد أنه مُرشدٌ فنقول: * مَن يُعرض عن حب الدنيا وحب الجاه.

* وكان قد تابع شيخًا بصيرًا تتسلسل متابعتُه إلى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

* وكان مُحسنًا رياضةَ نفسِه من قلة الأكل والقول والنوم، وكثرة الصلوات والصدقة والصوم.

* وكان بمتابعة الشيخ البصير جاعلًا محاسن الأخلاق له سيرة، كالصبر، والصلاة، والشكر، والتوكــل، واليقيــن، والسخــاء، والقناعــة، وطمأنينة النفس، والحِلم، والتواضع، والعلم، والصدق، والحياء، والوفاء، والوقار، والسكون، والتأني، وأمثالها.

فهو إذن نور من أنوار النبي صلى الله عليه وسلم، يَصلح للاقتداء به.

ولكن وجود مثله نادر، أعزُّ من الكبريت الأحمر، ومَن ساعدته السعادة فوجد شيخًا كما ذكرنا، وقَبِله الشيخ، ينبغي أن يحترمه ظاهرًا وباطنًا.

أما احترام الظاهر، فهو ألَّا يجادله، ولا يشتغل بالاحتجاج معه في كل مسألة وإن عَلم خطأه، ولا يُلقي بين يديه سجَّادته إلا وقت أداء الصلاة، فإذا فرغ من

الصلاة يرفعها، ولا يُكثر نوافل الصلاة بحضرته، ويعمل ما يأمره الشيخ من العمل بقدر وُسعه وطاقته.

وأما احترام الباطن، فهو أن كل ما يَسمع ويَقبل منه في الظاهر لا ينكره في الباطن، لا فعلًا ولا قولًا؛ لئلا يتَّسم بالنفاق، وإن لم يستطع يترك صحبته إلى أن يوافق باطنُه ظاهرَه.

ويحترز عن مجالسة صاحب السوء؛ ليُقصي ولاية شياطين الجن والإنس من صَحْن قلبه، فيُصْفِي عن لوثِ الشَّيطنة، وعلى كل حال يختار الفقر على الغنى.

ثم اعلم أن التصوف له خصلتان: الاستقامة، والسكون عن الخَلق.

فمَن استقام، وأحسن خُلُقَه بالناس، وعاملهم بالحِلم، فهو صوفي.

والاستقامة: أن يَفدي حظ نفسه لنفسه.

وحسن الخُلق مع الناس: ألا تَحمل الناسَ على مراد نفسك، بل تحمل نفسك على مرادهم ما لم يخالفوا الشرع.

ثم إنك سألتني عن العبودية

وهي ثلاثة أشياء: أحدها: محافظة أمر الشرع.

وثانيها: الرضاء بالقضاء والقدَر وقسمة الله تعالى.

وثالثها: ترك رضاء نفسك في طلب رضاء الله تعالى.

وسألتني عن التوكل

وهو أن تستحكم اعتقادك بالله تعالى فيما وعد، يعني تعتقد أن ما قُدِّر لك سيصل إليك لا محالة، وإن اجتهد كلُّ مَن في العالم على صَرْفه عنك. وما لم يُكتب لك لن يصل إليك، وإن ساعدك جميع العالم.

وسألتني عن الإخلاص

وهو أن تكون أعمالك كلها لله تعالى، ولا يرتاح قلبك بمحامد الناس، ولا تبالي بمذمَّتهم.

واعلم أن الرياء يتولّد من تعظيم الخَلق، وعلاجه أن تراهم مُسخَّرين تحت القُدرة، وتحسبهم كالجمادات في عدم قدرة إيصال الراحة والمشقة لِتَخلُص من مراءاتهم، ومتى تحسبهم ذوي قدرة وإرادة لن يَبعد عنك الرياء.

أيها الولد

والباقي من مسائلك بعضُها مسطور في مصنفاتي، فاطلبه ثمَّة، وكتابة بعضها حرام.

اعمل أنت بما تعلم؛ لينكشف لك ما لم تعلم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَن عمل بما علم ورَّثه الله عِلمَ ما لم يعلم».

أيها الولد

بعد اليوم لا تسألني ما أُشكل عليك إلا بلسان الجَنان، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

واقبَل نصيحة الخَضِر عليه السلام حين قال: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، ولا تستعجل حتى تبلغ أوانه يُكشف لك، وَتَرَهُ: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾، فلا تسألني قبل الوقت، وتيقَّنْ أنك لا تصل إلا بالسَّير لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾.

أيها الولد

بالله إن تَسِرْ تَرَ العجائب في كل منزل، وابذُل رُوحك فإن رأس هذا الأمر بَذْل الروح، كما قال ذو النون المصري رحمه الله لأحدٍ من تلامذته: «إن قَدَرتَ على بذل الروح فتعالَ، وإلا فلا تشتغل بالتُّرهات الصوفية».

أيها الولد

إني أنصحك بثمانية أشياء، اقبلها مني لئلا يكون عِلْمُك خَصْمَك يوم القيامة، تعمل منها أربعة، وتدع منها أربعة.

أما اللواتي تَدَع: فأحدها: ألا تُناظر أحدًا في مسألة ما استطعت، لأن فيها آفات كثيرة؛ فإثمها أكبر من نفعها، إذ هي منبع كل خُلق ذميم، كالرياء، والحسد، والكِبْر، والحقد، والعداوة، والمباهاة، وغيرها. نعم لو وقعت مسألة بينك وبين شخص أو قوم، وكانت إرادتك فيها أن تُظهر الحق ولا يَضيع، جاز البحث، لكنْ

لتلك الإرادة علامتان: إحداهما: ألا تُفرِّق بين أن ينكشف الحق على لسانك أو على لسان غيرك. والثانية: أن يكون البحث في الخلاء أحبَّ إليك من أن يكون في الملأ.

واسمع، إني أذكر لك ها هنا فائدة، واعلم أن السؤال عن المشكلات عَرْضُ مرضِ القلب إلى الطبيب، والجواب له سعيٌ لإصلاح مرضه.

واعلم أن الجاهلين: المرضى قلوبُهم.

والعلماء: الأطباء.

والعالِم الناقص لا يُحسن المعالجة، والعالِم الكامل لا يُعالِج كل مريض، بل يعالج من يرجو فيه قبول المعالجة والصلاح. فإذا كانت العلة مزمنة أو عقيمًا لا تقبل العلاج، فحذاقة الطبيب فيه أن يقول: هذا لا يقبل العلاج، فلا تشتغل فيه بمداواته لأن فيه تضييع العمر.

ثم اعلم أن مرض الجهل على أربعة أنواع: أحدها يقبل العلاج، والباقي لا يقبل.

أما الذي لا يقبل: فأحدها: مَن كان سؤاله واعتراضه عن حسد وبُغض. فكلما تجيبه بأحسن الجواب وأفصحه وأوضحه، فلا يَزيد له ذلك إلا بُغضًا وعداوةً وحسدًا، فالطريق ألا تشتغل بجوابه، فقد قيل: كُلُّ العَداوةِ قَد تُرجى إزالَتُها

إلَّا عَداوةَ مَنْ عَاداكَ عَن حَسَد

فينبغي أن تُعرِض عنه، وتتركه مع مرضه، قال الله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

والحسود بكل ما يقول ويفعل يوقد النار في زرع علمه: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب».

والثاني: أن تكون عِلَّتُه من الحماقة، وهو أيضًا لا يَقبل العلاج، كما قال عيسى عليه السلام: «إني ما عجزت عن إحياء الموتى، وقد عجزت عن معالجة الأحمق».

وذلك رجل يشتغل بطلب العلم زمنًا قليلًا، ويتعلم شيئًا قليلًا من علوم العقل والشرع، فيسأل ويعترض من حماقته على العالِم الكبير، الذي أمضى عمره في العلوم: العقلي والشرعي.

وهذا الأحمق لا يعلم، ويظن أن ما أشكَل عليه هو أيضًا مُشكِل للعالِم الكبير، فإذا لم يعلم هذا القَدْرَ يكون سؤاله من الحماقة، فينبغي ألا يشتغل بجوابه.

والثالث: أن يكون مُسترشِدًا، وكل ما لا يُفهم من كلام الأكابر يُحمل على قصور فهمه، وكان سؤاله للاستفادة، لكنْ لكونه بليدًا لا يدرك الحقائق، فلا ينبغي الاشتغال بجوابه أيضًا، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نحن معاشِرَ الأنبياء أُمِرنا أن نكلم الناس على قَدْر عقولهم».

وأما المرض الذي يَقبل العلاج، فهو: أن يكون مُسترشِدًا عاقلًا فَهِمًا، لا يكون مغلوب الحسد والغضب وحب الشهوة، والجاه والمال، ويكون طَالب الطريق المستقيم، ولم يكن سؤاله واعتراضه عن حسد وتعنُّت وامتحان، وهذا يَقبل العلاج، فيجوز أن تشتغل بجواب سؤاله بل يجب عليك إجابته.

والثاني مما تَدَع: وهو أن تَحْذر وتحترز من أن تكون واعظًا ومذكِّرًا؛ لأن آفته كثيرة إلا أن تعمل بما تقول أولًا، ثم تعظ به الناس. فتَفكَّرْ فيما قيل لعيسى عليه السلام: «يا ابن مريم عِظْ نفسك، فإنِ اتعظتَ فعِظِ الناس، وإلا فاستَحِ من ربك».

وإن ابتُليت بهذا العمل، فاحترز عن خَصلتين: الأولى: عن التكلُّف في الكلام بالعبارات والإشارات والطَّامات والأبيات والأشعار؛ لأن الله تعالى يُبغض المُتكلِّفين، والمُتكلِّفُ المتجاوزُ عن الحد يدل على خراب الباطن وغفلة القلب.

ومعنى التذكير: أن يَذكر العبد نار الآخرة، وتقصيرَ نفسه في خدمة الخالق، ويتفكر في عمره الماضي الذي أفناه فيما لا يَعنيه، ويتفكر فيما بين يديه من العقبات من عدم سلامة الإيمان في الخاتمة، وكيفية حاله في قبض ملَك الموت، وهل يقدر على جواب مُنكَرٍ ونَكير؟ ويهتم بحاله في القيامة ومواقفها، وهل يَعبر على الصراط سالمًا أم يقَع في الهاوية؟ ويستمر ذِكر هذه الأشياء في قلبه، فيزعجه عن قراره. فغليان هذه النيران، ونَوْحةُ هذه المصائب، يسمى تذكيرًا. وإعلام الخَلق واطلاعهم على هذه الأشياء، وتنبيههم على تقصيرهم وتفريطهم، وتبصيرهم بعيوب أنفسهم لِتَمسَّ حرارةُ هذه النيران أهلَ المجلس، وتُجزعهم تلك المصائبُ ليتداركوا العمر الماضي بقدر الطاقة، ويتحسروا على الأيام الخالية في غير طاعة الله تعالى، هذه الجملة على هذا الطريق تسمى وعظًا. كما لو رأيت أن السيل قد هجم على دار أحد، وكان هو وأهله فيها فتقول: الحذرَ الحذرَ، فِرُّوا من السيل. وهل يشتهي قلبك في هذه

الحالة أن تخبر صاحب الدار خبرك بتكلّف العبارات، والنَّكت والإشارات؟ فلا يشتهي البتة؛ فكذلك حال الواعظ فينبغي أن يجتنبها.

الخصلة الثانية: ألا تكون همَّتك في وعظك أن يَنعِر الخَلق في مجلسك ويُظهروا الوَجْد، ويشقُّوا الثياب، ليُقال: نِعمَ المجلس هذا؛ لأن كله ميل للدنيا والرياء، وهو يتولد من الغفلة. بل ينبغي أن يكون عزمك وهمَّتك أن تدعو الناس من الدنيا إلى الآخرة، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الحرص إلى الزهد، ومن البخل إلى السخاء، ومن الغرور إلى التقوى. وتُحبب إليهم الآخرة، وتُبغِّض إليهم الدنيا، وتُعلِّمهم علم العبادة والزهد؛ لأن الغالب على طباعهم الزَّيغ عن نهج الشرع، والسعي فيما لا يَرضى الله تعالى به، والاشتغال بالأخلاق الرَّدية. فألْقِ في قلوبهم الرعب، وروِّعهم وحذِّرهم عما يستقبلون من المخاوف؛ لعل صفاتِ باطنهم تتغير، ومعاملةَ ظاهرهم تتبدَّل، ويُظهروا الحرص، والرغبة في الطاعة، والرجوع عن المعصية، وهذا طريق الوعظ والنصيحة. وكل وعظ لا يكون هكذا فهو وبال على من قال ويسمع، بل قيل: إنه غُولٌ وشيطان، يَذهب بالخَلق عن الطريق ويُهلكهم، فيجب عليهم أن يَفرُّوا منه. لأن ما يُفسد هذا القائلَ من دينهم، لا يستطيع بمثله الشيطانُ، ومن كان له يد وقدرة يجب عليه أن يُنزله عن منابر المسلمين ويمنعه عما باشره؛ فإنه من جملة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والثالث مما تَدَع: أنه لا تُخالطِ الأمراء والسلاطين، ولا تَرَهم، لأن رؤيتهم ومجالستهم ومخالطتهم آفة عظيمة. ولو ابتُليت بها دَعْ عنك مدحهم وثناءهم؛ لأن الله تعالى يغضب إذا مُدح الفاسق والظالم، ومن دعا لطول بقائهم فقد أحبَّ أن يُعصى الله في أرضه.

والرابع مما تَدَع: ألا تَقبل شيئًا من عطاء الأُمراء وهداياهم، وإن علمتَ أنها من الحلال. لأن الطمع منهم يُفسد الدِّين؛ لأنه يتولد من المداهنة، ومراعاة جانبهم والموافقة في ظلمهم، وهذا كله فساد في الدِّين. وأقلُّ مضرَّته أنك إذا قَبِلت عطاياهم، وانتفعت من دنياهم أحببتَهم، ومن أحبَّ أحدًا يحب طول عمره، وبقاءه بالضرورة، وفي محبة بقاء الظالم إرادةٌ في الظلم على عباد الله تعالى، وإرادة خراب العالَم، فأي شيء يكون أضر من هذا على الدِّين والعاقبة؟ وإياك إياك أن تُخدع باستهواء الشياطين أو قول بعض الناس لك: بأن الأفضل والأَوْلى أن تأخذ منهم الدينار والدرهم، وتُفرِّقها بين الفقراء والمساكين؛ فإنهم ينفقون في الفسق والمعصية، وإنفاقك على ضعفاء الناس خير من إنفاقهم؛ فإن اللعين قد قطع أعناق كثير من الناس بهذه الوسوسة، وآفتُه كثيرة ذكرناها في «إحياء العلوم»، فاطلبه ثَمَّ.

وأما الأربعة التي ينبغي لك أن تفعلها: الأول: أن تجعل معاملتك مع الله تعالى، بحيث لو عامل معك بها عبدُك ترضى بها منه، ولا يضيق خاطرك عليه، ولا تغضب. والذي لا ترضى به لنفسك من عبدك المَجازي فلا ترضى أيضًا لله تعالى وهو سيدك الحقيقي.

والثاني: كلما عملت بالناس اجعله كما ترضى لنفسك منهم؛ لأنه لا يكمل إيمان عبدٍ حتى يحب لسائر الناس ما يحب لنفسه.

والثالث: إذا قرأت العلم أو طالعته، ينبغي أن يكون علمك علمًا يُصلح قلبك ويزكِّي نفسك. كما لو علمت أن عمرك ما يبقى غير أسبوع، فبالضرورة لا تشتغل فيها بعلم الفقه والخلاف والأصول والكلام وأمثالها؛ لأنك تعلم أن هذه العلوم لا تغنيك، بل تشتغل بمراقبة القلب، ومعرفة صفات النفس، والإعراض عن علائق الدنيا. وتزكِّي نفسك عن الأخلاق الذميمة وتشتغل بمحبة الله تعالى وعبادته، والاتصاف بالأوصاف الحسنة، ولا يمر على عبد يومٌ وليلة إلا ويمكن أن يكون موته فيه.

والرابع: ألا تجمع من الدنيا أكثر من كفاية سنة، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعِدُّ ذلك لبعض حجراته، وقال: «اللهم اجعل قوت آل محمد كفافًا». ولم يكن يُعِدُّ ذلك لكل حجراته بل كان يُعِدُّه لمن عَلِم أن في قلبها ضعفًا، وأما من كانت صاحبة يقين فما كان يُعِدُّ لها أكثر من قوت يوم ونصف.

أيها الولد

اسمع مني كلامًا آخر، وتفكَّرْ فيه حتى تجد فيه خلاصًا.

لو أنك أُخبِرت أن السلطان بعد أسبوع يجيئك زائرًا، أعلم أنك في تلك المدة لا تشتغل إلا بإصلاح ما علمتَ أن نظر السلطان سيقع عليه من الثياب، والبدن، والدار، والفُرش، وغيرها.

والآن تفكَّرْ إلى ما أشرتُ به فإنك فَهِمٌ، والكلام الفرد يكفي الكيِّسَ.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا ينظر إلى صُوركم ولا إلى أعمالكم، ولكنْ ينظر إلى قلوبكم ونياتكم».

وإن أردت عِلم أحوال القلب فانظر إلى «الإحياء» وغيره من مصنفاتي، وهذا العلم فرض عين، وغيره فرض كفاية إلا بمقدار ما يؤدَّى به إلى فرائضِ الله تعالى، والله يوفقك حتى تحصله.

أيها الولد

إني كتبت في هذا الفصل ملتمساتك، فينبغي لك أن تعمل بها، ولا تنساني فيه من أن تَذكرني في صالح دعائك.

وأما الدعاء الذي سألتَ مني، فاطلبه من دعوات الصِّحاح.

واقرأ هذا الدعاء في أوقاتك، خصوصًا في أعقاب صلواتك: اللهم إني أسألُك من النِّعمة تمامَها، ومن العِصمة دوامَها، ومن الرَّحمة شُمولَها، ومن العافية حُصولَها، ومن العَيش أرغدَه، ومن العُمر أسعدَه، ومن الإحسان أتمَّه، ومن الإنعام أعمَّه، ومن الفضل أعذَبه، ومن اللُّطف أقرَبه.

اللهم كُن لنا ولا تَكُن علينا.

اللهم اختم بالسعادة آجالَنا، وحقِّق بالزيادة آمالَنا، واقرِنْ بالعافية غُدوَّنا وآصالَنا، واجعل إلى رحمتك مصيرَنا ومآلَنا، واصبُب سِجَالَ عَفوِكَ على ذُنوبِنا، ومُنَّ علينا بإصلاح عيوبِنا، واجعل التقوى زادَنا، وفي دِينك اجتهادَنا، وعليك توكُّلَنا واعتمادَنا.

اللهم ثبِّتنا على نَهجِ الاستقامة، وأعِذْنا في الدنيا من مُوجبات النَّدامة يوم القيامة، وخفِّف عنا ثِقَل الأوزار، وارزقنا عِيشة الأبرار، واكفِنا واصرِف عنا شرَّ الأشرار، وأعتِق رقابَنا ورقابَ آبائنا وأمهاتنا ومشايخنا من النار، برحمتك يا عزيز يا غفار، يا كريم يا ستار، يا حليم يا جبار يا الله... يا الله... يا الله... يا الله... يا رحيم... يا رحيم يا أرحم الراحمين، ويا أوَّل الأولين، ويا آخر الآخرين، ويا ذا القوة المتين، ويا راحِمَ المساكين، ويا أرحم الراحمين، لا إله إلا أنت سُبحانك إني كنتُ من الظالمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

منهاج العارفين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي نوَّر قلوب العارفين بذكره، وأنطق ألسنتهم بشكره، وعمَّر جوارحهم بخدمته، فهم في رياض الأنس يرتعون، وإلى أوكار المحبة يأوون. ذكرهم فذكروه، وأحبهم فأحبوه، ورضي عنهم فرضوا عنه. رأسُ مالهم الافتقار، ونظام أمرهم الاضطرار. علَّمهم دواء الذنوب، وعرَّفهم طب القلوب، فهم مصابيح أنوار حجته، ومفاتيح خزائن حكمته. إمامهم القمر الطالع، وقائدهم النور الساطع، سيد الموالي والعرب، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، والثمرة الزاكية من الشجرة المباركة، التي أصلها التوحيد، وفروعها التقوى ﴿ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾. صلى الله عليه وسلم صلاة تلوح في السماوات آثارُها، وتعلو في جنان الخلد أنوارُها، وتطيب في مشاهد الأنبياء أخبارُها، وعلى آله الطاهرين وأصحابه المُطهَّرين.

باب البيان نحو المريدين

يدور على ثلاثة أصول: الخوف، والرجاء، والحب.

فالخوف: فرع العلم. والرجاء: فرع اليقين. والحب: فرع المعرفة.

فدليل الخوف الهرب. ودليل الرجاء الطلب. ودليل الحب إيثار المحبوب.

ومثال ذلك: الحرم، والمسجد، والكعبة. فمن دخل حرم الإرادة أمن من الخلق، ومن دخل المسجد أمنت جوارحه أن يستعملها في معصية الله تعالى، ومن دخل الكعبة أمن قلبه أن يشتغل بغير ذكر الله عز وجل.

فإذا أصبح العبد لزمه أن ينظر في ظلمة الليل ونور النهار، ويعلم أن أحدهما إذا ظهر عزل صاحبه عن الولاية، فكذلك نور المعرفة إذا ظهر عزل ظلمة المعاصي عن الجوارح. فإن كانت حالته حالة يرضاها لحلول الموت شكرَ الله تعالى على توفيقه وعصمته. وإن كانت حالته حالة يكره معها الموت انتقل عنها بصحة العزيمة وكمال الجهد، وعلم أن لا ملجأ من الله إلا إليه، كما أنه لا وصول إليه إلا به، فندم على ما أفسده من عمره بسوء اختياره، واستعان بالله على تطهير ظاهره من الذنوب، وتصفية باطنه من العيوب، وقطع زنار الغفلة عن قلبه، وأطفأ نار الشهوة عن نفسه، واستقام على طريق الحق، وركب مطية الصدق، فإن النهار دليل الآخرة، والليل دليل الدنيا، والنوم شاهد

الموت، والعبد قادم على ما أسلف، ونادم على ما خلّف، يقول الله عز وجل: ﴿ يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾.

باب الأحكام

وإعراب القلوب على أربعة أنواع: رفع، وفتح، وخفض، ووقف.

فرفع القلب في ذكر الله تعالى. وفتح القلب في الرضاء عن الله تعالى. وخفض القلب في الاشتغال بغير الله تعالى. ووقف القلب في الغفلة عن الله تعالى.

فعلامة الرفع ثلاثة أشياء: وجود الموافقة، وفقد المخالفة، ودوام الشوق.

وعلامة الفتح ثلاثة أشياء: التوكل، والصدق، واليقين.

وعلامة الخفض ثلاثة أشياء: العُجب، والرياء، والحرص؛ وهو مراعاة الدنيا.

وعلامة الوقف ثلاثة أشياء: زوال حلاوة الطاعة، وعدم مرارة المعصية، والتباس الحلال.

باب الرعاية

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «طلبُ العلمِ فريضةٌ على كل مسلم». وهو علم الأنفاس، فيجب أن يكون نفَس المريد شكرًا أو عذرًا. فإن قيل: ففضلٌ وإن رُد فعدلٌ، فطائع الحركة بالتوفيق، والسكون بالعصمة، ولا يستقيم ذلك له إلا بدوام الافتقار والاضطرار.

ومفتاح ذلك: ذكر الموت؛ لأن فيه راحة من الحبس ونجاة من العدو، وقوامه برد العمر إلى يوم واحد، ولن يلتئم ذلك إلا بالتفكير في الأوقات.

وباب الفكر الفراغ، وسبب الفراغ الزهد، وعماد الزهد التقوى، وسنام التقوى الخوف، وزمام الخوف اليقين، ونظام اليقين الخلوة والجوع، وتمامها الجهد والصبر، وطريقهما الصدق، ودليل الصدق العلم.

باب النية

لا بد للعبد من النية في كل حركة وسكون: «فإنما الأعمالُ بالنيات، ولكل امرئ ما نوى»، و«نية المؤمن خير من عمله».

والنية تختلف حسب اختلاف الأوقات، وصاحب النية نفسُه منه في تعب، والناس منه في راحة، وليس شيء على المريد أصعب من حفظ النية.

باب الذِّكر

اجعل قَلبك قِبلة لسانك، واشعر عند الذكر حياء العبودية، وهيبة الربوبية.

واعلم بأن الله تعالى يعلم سر قلبك، ويرى ظاهر فِعلك، ويسمع نجوى قولك، فاغسل قلبك بالحزن، وأوقدْ فيه نار الخوف، فإذا زال حجاب الغفلة عن قلبك، كان ذكرك به مع ذكره لك. قال الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَر﴾؛ لأنه ذكرَك مع الغناء عنك، وأنت ذكرته مع الفقر إليه، فقال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾. فيكون اطمئنانُ القلب في ذكر الله له، ووجلُه في ذكره لله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

والذكر ذكران: ذكر خالص بموافقة القلب في سقوط النظر إلى غير الله، وذكر صافٍ بفناء الهمة عن الذكر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك».

باب الشُّكر

وفي كل نفَس من أنفاس العبد نعمة لله تتجدد عليه يلزمه القيام بشكرها.

وأدنى الشكر أن يرى النعمة من الله تعالى، ويرضى بما أعطاه، ولا يخالفه بشيء من نعمه.

وتمام الشكر في الاعتراف بلسان السر أن الخلق كلهم يعجزون عن أداء شكره على أصغر جزء من نعمه، وإن بلغوا غاية المجهود؛ لأن التوفيق للشكر نعمة حادثة يجب الشكر عليها، فيلزمك على كل شكرٍ شكرٌ إلى ما لا نهاية له. فإذا تولى الله العبد حمل عنه شكره، فرضي عنه بيسير، وحطَّ عنه ما يعلم أنه لا يبلغه ويضعفه: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

باب اللباس

اللباس نعمة من الله تعالى على عبده، يستر به البشرة: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾.

وخير لباسك ما لا يشغل سرك عن الله تعالى، فإذا لبست ثوبك فاذكر محبة الله الستر على عباده، فلا تفضح أحدًا من خلقه بعيب تعلمه منه، واشتغل بعيب نفسك فاستره بدوام الاضطرار إلى الله تعالى في تطهيره، فإن العبد إذا نسي ذنبه كان ذلك عقوبة له، وازداد به جرأة على المعاصي، ولو انتبه من رقدة الغفلة لنصب ذنوبه بين عينيْ قلبه نصبًا، ولَبكى عليه بجفون سره، واستولى عليه الوجل فذاب حياءً من ربه.

وما دام العبد يرجع إلى حول نفسه وقوتها، انقطع عن حول الله وقوته، فاطرَح همتك بين يدي الخوف والرجاء: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

باب القيام

فإذا قمتَ من فراشك: فأقم قلبك عن فراش البطالة، وأيقظ نفسك عن نوم الجهالة، وانهض بكُلِّك إلى من أحياك ورَدَّ إليك نفَسك، وقم بفكرك عن حركتك وسكونك، واصعد بقلبك إلى الملكوت الأعلى، ولا تجعل قلبك تابعًا لنفسك، فإن النفس تميل إلى الأرض، والقلب يميل إلى السماء، واستعمل قول الله عز وجل: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾.

باب السواك

واستعمل السواك، فإنه مَطْهرة للفم، ومرضاة للرب، وطهِّر ظاهرك وباطنك عن دنس الإساءة، وأخلص أعمالك عن كدر الرياء والعُجب، واجلُ قلبك بصافي ذكره، ودع عنك ما لا ينفعك بل يضرك.

باب التبرز

وإذا تبرزت لقضاء وطر فاعتبر، فإن الراحة في إزالة النجاسة، واستنج ونكِّس رأس همتك، وأغلق باب الكبر، وافتح باب الندم، واجلس على بساط الندامة، واجتهد في إيثار أمره، واجتناب نهيه، والصبر على حكمه، واغسل شَرَّك بترك الغضب والشهوة، واستعمل الرغبة والرهبة، فإن الله تعالى مدح قومًا فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.

باب الطهارة

وإذا تطهَّرت ففكِّر في صفوة الماء ورقته وتطهيره وتنظيفه، فإن الله تعالى جعله مباركًا فقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾. فاستعملْه في الأعضاء التي فرض الله عليك تطهيرها.

ولتكن صفوتك مع الله كصفوة الماء، فاغسل وجه قلبك عن النظر إلى غير الله، واغسل يدك عن الامتداد إلى غيره، وامسح رأسك عن الافتخار بغيره، واغسل رِجليك عن السعي لغيره، واحمد الله على ما ألهمك من دينه.

باب الخروج

فإذا خرجت من منزلك إلى مسجدك، فاعلم أن لله تعالى حقوقًا عليك يلزمك أداؤها، من ذلك السكينة والوقار، والاعتبار بخلق الله بَرِّهم وفاجرهم، قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾. وغُضَّ بصرَك عن نظر الغفلة والشهوة، وأفشِ السلام مبتدئًا ومجيبًا، وأعِن مَن استعانك على الحق، وأمُرْ بالمعروف، وانْهَ عن المنكر إن كنت من أهله، وأرشِدْ الضال.

باب دخول المسجد

فإذا بلغت باب المسجد، فاعلم أنك قصدت بيت ملك عظيم، قدره لا يقبل إلا الطاهر، ولا يصعد إليه إلا الخالص.

ففكِّر في نفسك مَن أنت، ولمن أنت، وأين أنت، ومن أي ديوان يخرج اسمك؟

فإذا استصلحت نفسك لخدمته فادخل، فلك الإذن والأمان. وإلا فقِفْ وقوف مضطرب، قد انقطعت عنه الحيل، وانسدت عنه السبل.

فإذا علم الله من قلبك الالتجاء إليه، أذِن لك فتكون أنت بلا أنت، والله يرحم عبده، ويكرم ضيفه، ويعطي سائله، ويَبرُّ المُعرِض عنه، فكيف المقبل إليه؟

باب افتتاح الصلوات

فإذا استقبَلت بوجهك القبلة استقبِل بقلبك الحق، ولا تنبسط فلستَ من أهل الانبساط، واذكر وقوفك بين يديه يوم العرض الأكبر، وقِف على قدمي الخوف والرجاء، وارفع قلبك عن النظر إلى الدنيا والخلق، وأرسل همتك إليه فإنه لا يرد الآبق، ولا يخيب السائل.

فإذا قلت: الله أكبر، فاعلم أنه لا يحتاج إلى خدمتك له وذكرك إياه؛ لأن الحاجة من جبلة الفقراء وذلك سمة الخلق، والغنى من صفات ذاته. وإنما وظف على عبيده وظائف ليقرِّبهم بها إلى عفوه ورحمته، ويبعدهم بها من سخطه وعقوبته، قال الله عز وجل: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾، وقال عز من قائل: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

واشكر الله إذ جعلك أهلًا للوقوف بين يديه، فإنه ﴿ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾، أهلٌ أن يتقيه خلقُه فيغفر لمن اتقاه.

باب القراءة

قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾. ﴿ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ ﴾.

واذكر عهد الله عليك وميثاقه في وحيه وتنزيله، وانظر كيف تقرأ كلامه وكتابه، فرتِّل وتدبر، وقِفْ عند وعده ووعيده، وأمثاله ومواعظه، وأمره ونهيه، ومُحكمه ومتشابهه. وإني لأخشى أن تكون إقامتُك حدودَه غفلة من تضييعك حدوده، قال الله تعالى عز وجل: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾.

باب الركوع

واركع ركوع خاشعٍ لله بقلبه، خاضعٍ بجوارحه، واستوفِ ركوعك، وانحَطَّ عن همتك في القيام بأمره، فإنك لا تقدر على أداء فرضه إلا بعونه، ولا تبلغ دار رضوانه إلا برحمته، ولا تستطيع الامتناع عن معصيته إلا بعصمته، ولا تنجو من عذابه إلا بعفوه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لن يدخل الجنةَ أحدٌ بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته».

باب السجود

واسجد لله سجود عبد متواضع عَلِم أنه خُلق من تراب يطؤه جميع الخلق، وأنه رُكِّب من نطفة يستقذرها كل أحد، فإذا فكر في أصله وتأمل تركيب جوهره من ماء وطين ازداد لله تواضعًا، ويقول في نفسه: ويحك لِم رفعت رأسك من سجودك؟ لِمَ لَم تَمُت بين يديه وقد جعل الله السجود سبب القرب إليه، فقال تعالى: ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾، فمن اقترب منه بعُد من كل شيء سواه.

واحفظ صفة سجودك في هذه الآية: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾.

واستغن بالله عن غيره، فإنه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «قال الله تبارك وتعالى: لا أطلع على قلب عبد فأعلم منه حب العمل بطاعتي إلا توليت تقويمه وسياسته».

باب التشهد

والتشهد ثناء، وشكر له، وتعرُّض لمزيد فضله، ودوام كرامته. فاخرج عن دعواك، وكن له عبدًا بفعلك، كما أنت عبد له بقولك؛ فإنه خلقك عبدًا، وأمرك أن تكون له عبدًا كما خلقك: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾.﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾.

فاستعمل العبودية في الرضا بحكمته، واستعمل العبادة في النزول تحت أمره، وصلِّ على حبيبه عقب الثناء عليه؛ فإنه وصل محبتَه بمحبته، وطاعتَه بطاعته، ومتابعتَه بمتابعته، فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾، وقال: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾، وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾. وأمر رسوله بالاستغفار لك، فقال تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ وأمرك بالصلاة عليه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من صلى عليَّ واحدة صلى الله عليه بها عَشرًا». وعامله بالفضل، فقال تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾. ثم أمره بمعاملته بالعدل، فقال لغيره: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾، وقال له: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾.

باب السلام

السلام من أسماء الله تعالى الحسنى، أودعه خَلقه ليستعملوا معناه في معاملته، ومعاشرة خلقه، فإذا أردت السلامة فليَسلم منك صديقك.

وارحم من لا يرحم نفسه، فإن الخلق بين فتن ومحن، إما مبتلى بالنعمة ليظهر شكره، وإما مبتلى بالشدة ليظهر صبره، قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16) كَلَّا ﴾. فالكرامة في طاعته، والهوان في معصيته، ومن ركب الهوى أهانه الله.

باب الدعاء

واحفظ آداب الدعاء، وانظر مَن تدعو، وكيف تدعو، ولماذا تدعو، ولماذا تسأل.

والدعاء استجابة الكل منك للحق. وإن لم تأتِ بشرط الدعاء فلا تشترط الإجابة.

قال مالك بن دينار: أنتم تستبطئون المطر وأنا أستبطئ الحجر. ولو لم يأمر الله سبحانه بالدعاء لوجب علينا أن ندعوه ولو لم يشترط لنا الإجابة، لكنا إذا أخلصنا له الدعاء تفضل بالإجابة، فكيف وقد ضمن ذلك لمن أتى بشرط الدعاء. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾، وقال تعالى: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾.

وسُئل أبو يزيد البسطامي عن اسم الله الأعظم، فقال: فرِّغ قلبك من غيره، وادعه بأي أسمائه شئت.

وقال يحيى بن معاذ: اطلب صاحب الاسم.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يستجيب الله الدعاء من قلب لاهٍ»، فإذا أخلصت فأبشر بإحدى ثلاث: إما أن يجعل لك ما سألت، وإما أن يدخر لك ما هو أعظم منه، وإما أن يصرف عنك من البلاء ما لو صبَّه عليك لهلكت. وادع دعاء مستجير لا دعاء مشير.

رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «قال الله تبارك وتعالى: من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين».

وقال أبو الحسين الوراق: دعوتُ الله مرة فاستجاب دعائي، فنسيت الحاجة. فاحفظ حق الله عز وجل عليك في الدعاء، ولا تشتغل بحظك؛ فإنه أعلم بمصلحتك.

باب الصوم

فإذا صمت فانوِ بصومك كَفَّ النفس عن الشهوات، فإن الصوم فناء مراد النفس، وفيه: صفاء القلب، وضمارة الجوارح، والتنبيه على الإحسان إلى الفقراء، والالتجاء إلى الله، والشكر على ما تفضل به من النعم، وتخفيف الحساب.

ومنَّة الله في توفيقك للصوم أعظم من أن تقوم بشكرها، ومِن صومك أن لا تطلب منه عوضًا.

باب الزكاة

وعن كل جزء من أجزائك زكاة واجبة لله: فزكاة القلب: التفكر في عظمته، وحكمته، وقدرته، وحجته، ونعمته، ورحمته.

وزكاة العين: النظر بالعبرة، والغض عن الشهوة.

وزكاة الأذن: الاستماع إلى ما فيه نجاتك.

وزكاة اللسان: النطق بما يقربك إليه.

وزكاة اليد: القبض عن الشر والبسط إلى الخير.

وزكاة الرِّجل: السعي إلى ما فيه صلاح قلبك وسلامة دينك.

باب الحج

والمريد إذا حج يعقد النية خوف الرد، واستعَد استعداد من لا يرجو الإياب، وأحسَن الصحبة، وتجرد عند الإحرام عن نفسه، واغتسل من ذنبه، ولبس ثوب الصدق والوفاء، ولبَّى موافقةً للحق في إجابة دعوته، وأحرم في الحرم من كل شيء يبعده عن الله تعالى، وطاف بقلبه حول كرسي كرامته، وصفَّى ظاهره وباطنه عند الوقوف على الصفا، وهرول هربًا من هواه، ولم يَتمنَّ على الله ما لا يحل له، واعترف بالخطأ بعرَفة، وتقرب إلى الله بمزدلفة، ورمى الشهوات عند رمي الجمرات، وذبح هواه، وحلق الذنوب، وزار البيت معظِّمًا صاحبه، واستلم الحجر رضاءً بقضائه، وودَّع ما دون الله في طواف الوداع.

باب السلامة

واطلب السلامة، فليت مَن طلبها وجدها، فكيف بمَن تعرض للبلاء؟

والسلامة قد عزَّت في هذا الزمان وهي في الخمول، فإن لم تكن في الخمول فالعزلة وليست كالخمول، فإن لم تكن عزلة فالصمت وليس كالعزلة، فإن لم تكن في صمت فالكلام بما ينفع ولا يضر وليس كالصمت.

وإن أردت السلامة فلا تنازع الأضداد، ولا تنافس الأشكال، كل من قال: أنا، فقل: أنت، وكل من قال: لي، فقل: لك.

والسلامة في زوال العرف، وزوال العرف في فَقْد الإرادة، وفقدُ الإرادة في ترك دعوى العلم فيما استأثر الله به من تدبير أمرك، قال الله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾، وقال: ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾.

باب العزلة

صاحب العزلة يحتاج إلى عشرة أشياء: علم الحق والباطل. والزهد واختيار الشدة. واغتنام الخلوة والسلامة. والنظر في العواقب. وأن يرى غيرَه أفضل منه. ويعزل عن الناس شره. ولا يفتر عن العلم، فإن الفراغ بلاء. ولا يعجب بما هو فيه. ويخلو بيتُه من الفضول، والفضول ما فضل عن يومك لأهل الإرادة، وما فضل عن وقتك لأهل المعرفة. ويقطع ما يقطعه عن الله تعالى.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحذيفة بن اليمان: «كُن حِلْسَ بيتك».

وقال عيسى ابن مريم عليه السلام: «املك لسانك، ولْيَسَعك بيتُك، وأنزِل نفسك منزلة السَّبع الضاري والنار المحرقة، وقد كان الناس ورقًا بلا شوك فصاروا شوكًا بلا ورق، وكانوا أدواء يُستشفى بهم فصاروا داءً لا دواء له».

قيل لداود الطائي: ما لك لا تخالط الناس؟ فقال: كيف أخالط مَن يتبع عيوبي، كبيرًا لا يعرف الخلق، وصغيرًا لا يُوقِّر، من استأنس بالله استوحش من غيره.

وقال الفضيل: إن استطعت أن تكون في موضع لا تَعرف ولا تُعرف، فافعل.

وقال سليمان: هَمي من الدنيا أن ألبس عباءة، وأكون بقرية ليس فيها أحد يعرفني، ولا غداء لي ولا عَشاء.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يأتي زمانٌ المستمسك يومئذ بدينه كالقابض على الجمر وله أجر خمسين منكم».

وفي العزلة صيانة الجوارح، وفراغ القلب، وسقوط حقوق الخَلق، وإغلاق أبواب الدنيا، وكسر سلاح الشيطان، وعمارة الظاهر والباطن.

باب العبادة

أقبِل على أداء الفرائض، فإن سَلِم لك فرضُك فأنت أنت، واطلب بالنوافل حفظَ الفرائض، وكلما ازددت عبادة فازدَدْ شكرًا وخوفًا.

قال يحيى بن معاذ: عجبت لطالب فضيلة تارك فريضة. ومن كان عليه دَين فأهدى إلى صاحب الدين مثلَ حقه، كان مطالبًا بالحق إذا حلَّ الأجل.

وقال أبو بكر الورَّاق: ابذل في هذا الزمان أربعة على أربعة: الفضائل على الفرائض، والظاهر على الباطن، والخلق على النفس، والكلام على الفعل.

باب التفكر

تفكّرْ في قوله عز وجل: ﴿ هَلْ أتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾.

واذكر كيف أحوالك، واعتبر بما مضى من الدنيا على ما تراه، هل أبقت على أحد، وما بقي منها أشبه بما مضى من الماء بالماء، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لم يَبق من الدنيا إلا بلاء وفتنة». وقيل لنوح عليه السلام: كيف وجدتَ الدنيا يا أطول الأنبياء عمرًا؟ قال: كبيتٍ له بابان، دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر. والفكرة أبو كل خير، وهي مرآةٌ تريك الحسنات والسيئات.

تم بحمد الله وعونه وحسن توفيقه، والحمد لله وحده.

كيمياء السعادة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي أصعد قوالب الأصفياء بالمجاهدة، وأسعد قلوب الأولياء بالمشاهدة، وحلَّى ألسنة المؤمنين بالذكر، وجلَّى خواطر العارفين بالفكر، وحرس سواد العباد عن الفساد، وحبس مراد الزهاد على السداد، وخلَّص أشباح المتقين من ظلم الشهوات، وصفَّى أرواح الموقنين عن ظلم الشبهات، وقبِل أعمال الأخيار بأداء الصلوات، وأيَّد خصال الأحرار بأسدِّ الصلات.

أحمده حمد مَن رأى آيات قدرته وقوَّته، وشاهد الشواهد من فردانيته ووحدانيته، وطرق طوارق سِرِّه وبِرِّه، وقطف ثمار معرفته من شجر مجده وجوده.

وأشكره شكر مَن اخترق واغترف من نهر فضله وإفضاله.

وأومن به إيمان من آمن بكتابه وخطابه، وأنبيائه وأصفيائه، ووعده ووعيده، وثوابه وعقابه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ بعثه لأصلاب الفسقة والفجرة قاصمًا، ولعُرَى الجاحدين والمارقين فاصمًا، ولباغي الشك والشرك قاهرًا، ولأتباع الحق والإحسان ناصرًا. فصلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

عنوان معرفة النفس

اعلم أن الكيمياء الظاهرية لا تكون في خزائن العوام، وإنما تكون في خزائن الملوك. فكذلك كيمياء السعادة لا تكون إلا في خزائن الله سبحانه وتعالى، ففي السماء جواهر الملائكة، وفي الأرض قلوب الأولياء العارفين. فكل من طلب هذه الكيمياء من غير حضرة النبوة فقد أخطأ الطريق، ويكون عمله كالدينار البهرج، فيظن في نفسه أنه غني وهو مفلس في القيامة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾.

ومن رحمة الله سبحانه وتعالى لعباده أن أرسل إليهم مائة ألف وأربعة وعشرين ألف نبي، يُعلمون الناس نسخة الكيمياء، ويعلمونهم كيف يجعلون القلب في كُور المجاهدة، وكيف يطهرون القلب من الأخلاق المذمومة، وكيف يؤدونه لطرق الصفاء، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾. أي: يطهرهم من الأخلاق المذمومة ومن صفات البهائم، ويجعل صفات الملائكة لباسهم وحليتهم.

ومقصود هذه الكيمياء أن كل ما كان من صفات النقص يتعرى منه، وكل ما يكون من صفات الكمال يلبسه.

وسر هذه الكيمياء أن ترجع من الدنيا إلى الله، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾.

وفضل هذه الكيمياء طويل.

فصل في معرفة النفس

اعلم أن مفتاح معرفة الله تعالى هو معرفة النفس، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾، وقال النبي

صلى الله عليه وسلم: «مَن عرف نفسه فقد عرف ربه». وليس شيء أقرب إليك من نفسك، فإذا لم تعرف نفسك فكيف تعرف ربك؟

فإن قلت: إني أعرف نفسي. فإنما تعرف الجسم الظاهري، الذي هو اليد والرِّجل والرأس والجثة، ولا تعرف ما في باطنك من الأمر الذي به إذا غضبت طلبت الخصومة، وإذا اشتهيت طلبت النكاح، وإذا جعت طلبت الأكل، وإذا عطشت طلبت الشرب. والدواب تشاركك في هذه الأمور. فالواجب عليك أن تعرف نفسك بالحقيقة حتى تدري أي شيء أنت، ومن أين جئت إلى هذا المكان، ولأي شيء خُلقت، وبأي شيء سعادتك، وبأي شيء شقاوتك.

وقد جمعتَ في باطنك صفات: منها صفات البهائم، ومنها صفات السباع، ومنها صفات الشياطين، ومنها صفات الملائكة. فالروح حقيقة جوهرك، وغيرها غريب عنك وعارية عندك. فالواجب عليك أن تعرف هذا، وتعرف أن لكل واحد من هؤلاء غذاء وسعادة.

فإن سعادة البهائم في الأكل والشرب والنوم والنكاح، فإن كنت منهم فاجتهد في إعمال الجوف والفرج.

وسعادة السباع في الضرب والفتك.

وسعادة الشياطين في المكر والشر والحيل، فإن كنت منهم فاشتغل باشتغالهم.

وسعادة الملائكة في مشاهدة جمال الحضرة الربوبية، وليس للغضب والشهوة إليهم طريق، فإن كنت من جوهر الملائكة فاجتهد في معرفة أصلك حتى تعرف الطريق إلى الحضرة الإلهية، وتبلغ إلى مشاهدة الجلال والجمال، وتخلص نفسك من قيد الشهوة والغضب، وتعلم أن هذه الصفات لأي شيء رُكبت فيك، فما خلقها الله تعالى لتكون أسيرها، ولكن خلقها حتى تكون أسراك، وتسخرها للسفر الذي قدامك، وتجعل إحداها مركبك، والأخرى سلاحك حتى تصيد بها سعادتك.

فإذا بلغت غرضك فقاوم بها تحت قدميك، وارجع إلى مكان سعادتك. وذلك المكان قرار خواص الحضرة الإلهية، وقرار العوام درجات الجنة.

فتحتاج إلى معرفة هذه المعاني حتى تعرف من نفسك شيئًا قليلًا، فكل من لم يعرف هذه المعاني فنصيبه من القشور؛ لأن الحق يكون عنه محجوبًا.

فصل

إذا شئتَ أن تعرف نفسك، فاعلم أنك من شيئين؛ الأول: هذا القلب، والثاني: يسمى النفس والروح.

والنفس هو القلب الذي تعرفه بعين الباطن. وحقيقتك الباطن؛ لأن الجسد أول وهو الآخر، والنفس آخر وهو الأول، ويسمى قلبًا. وليس القلب هذه القطعة اللَّحمية التي في الصدر من الجانب الأيسر؛ لأنه يكون في الدواب والموتى.

وكل شيء تبصره بعين الظاهر فهو من هذا العالم الذي يسمى عالم الشهادة.

وأما حقيقة القلب، فليس من هذا العالم، لكنه من عالم الغيب، فهو في هذا العالم غريب، وتلك القطعة اللحمية مركبة، وكل أعضاء الجسد عساكره، وهو الملك، ومعرفة الله ومشاهدة جمال الحضرة صفاته، والتكليف عليه، والخطاب معه، وله الثواب وعليه العقاب، والسعادة والشقاء تلحقانه، والروح الحيواني في كل شيء تبعه ومعه، ومعرفة حقيقته ومعرفة صفاته مفتاح معرفة الله سبحانه وتعالى. فعليك بالمجاهدة حتى تعرفه؛ لأنه جوهر عزيز من جنس جوهر الملائكة، وأصل معدنه من الحضرة الإلهية، من ذلك المكان جاء، وإلى ذلك المكان يعود.

فصل

أما سؤالك: ما حقيقة القلب؟

فلم يجئ في الشريعة أكثر من قول الله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾؛ لأن الروح من جملة القدرة الإلهية، وهو من عالم الأمر، قال الله عز وجل: ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾.

فالإنسان من عالم الخلق من جانب، ومن عالم الأمر من جانب، فكل شيء يجوز عليه المساحة والمقدار والكيفية فهو من عالم الخلق. وليس للقلب مساحة ولا مقدار؛ ولهذا لا يقبل القسمة، ولو قَبِل القسمة لكان من عالم الخَلق. وكان من جانب الجهل جاهلًا، ومن جانب العلم عالمًا، وكل شيء يكون فيه علم وجهل فهو محال.

وفي معنى آخر هو من عالم الأمر؛ لأن عالم الأمر عبارة عن شيء من الأشياء، لا يكون للمساحة والتقدير طريق إليه.

وقد ظن بعضهم أن الروح قديم، فغلطوا. وقال قوم: إنه عَرَضٌ، فغلطوا؛ لأن العرض لا يقوم بنفسه، ويكون تابعًا لغيره.

فالروح هو أصل ابن آدم، وقالب ابن آدم تبع له، فكيف يكون عَرَضًا؟!

وقال قوم: إنه جسم، فغلطوا؛ لأن الجسم يقبل القسمة. فالروح الذي سميناه قلبًا، وهو محل معرفة الله تعالى، ليس بجسم ولا عَرَض، بل هو من جنس الملائكة.

ومعرفة الروح صعبة جدًّا؛ لأنه لم يرد في الدين طريق إلى معرفته، لأنه لا حاجة في الدين إلى معرفته؛ لأن الدين هو المجاهدة، والمعرفة علامة الهداية، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾. ومن لم يجتهد حق اجتهاده لم يجز أن يتحدث معه في معرفة حقيقة الروح. وأول أس المجاهدة أن تعرف عسكر القلب؛ لأن الإنسان إذا لم يعرف العسكر لم يصح له الجهاد.

فصل

اعلم أن النفس مركب القلب، وللقلب عساكر، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾.

والقلب مخلوق لعمل الآخرة طلبًا لسعادته، وسعادته معرفة ربه عز وجل، ومعرفة ربه تعالى تحصل له من صنع الله، وهو من جملة عالمه. ولا تحصل له معرفة عجائب العالم إلا من طريق الحواس، والحواس من القلب، والقالب مركبه. ثم معرفة صيده ومعرفة شبكته، والقالب لا يقوم إلا بالطعام والشراب والحرارة والرطوبة. وهو ضعيف، على خطر من الجوع والعطش في الباطن، وعلى خطر من الماء والنار في الظاهر، وهو مقابل أعداء كثيرة.

فصل

وتحتاج أن تعرف العسكرين: وذلك أن العسكر الظاهر هو: الشهوة والغضب، ومنازلهم في اليدين والرِّجلين والعينين والأذنين وجميع الأعضاء.

وأما العسكر الباطن، فمنازله في الدماغ، وهو قوى الخيال والتفكر والحفظ والتذكر والوهم. ولكل قوة من هذه القوى عمل خاص، فإن ضعف واحد منهم ضعف حال ابن آدم في الدارين.

وجملة هذين العسكرين في القلب وهو أميرهما، فإن أمَرَ اللسانَ أن يذكر ذَكَر، وإن أمر اليد أن تبطش بطشت، وإن أمر الرِّجل أن تسعى سعت، وكذلك الحواس الخمس؛ حتى يحفظ نفسه كيما يدَّخِر الزاد للدار الآخرة، ويحصل الصيد وتتم التجارة ويجمع بذر السعادة. وهؤلاء طائعون للقلب، كما أن الملائكة طائعون للرب سبحانه وتعالى، لا يخالفون أمره.

فصل في معرفة القلب وعسكره

اعلم أنه قيل في المثل المشهور: إن النفس كالمدينة، واليدين والقدمين وجميع الأعضاء ضياعها، والقوة الشهوانية والِيها، والقوة الغضبية شحنتها، والقلب مَلِكها، والعقل وزيرها. والمَلِك يدبرهم حتى تستقر مملكته وأحواله؛ لأن الوالي وهو الشهوة ـ كذاب فضولي مخلِّط، والشحنة ـ وهو الغضب ـ شرير قتَّال خرَّاب. فإن تركهم الملك على ما هم عليه، هلكت المدينة وخربت. فيجب أن يشاور الملك الوزيرَ، ويجعل الوالي والشحنة تحت يد الوزير، فإذا فعل ذلك استقرت أحوال المملكة وتعمرت المدينة. وكذلك القلب يشاور العقل، ويجعل الشهوة والغضب تحت حكمه، حتى تستقر أحوال النفس، ويصل إلى سبب السعادة من معرفة الحضرة الإلهية. ولو جُعل العقل تحت يد الغضب والشهوة، هلكت نفسه، وكان قلبه شقيًّا في الآخرة.

فصل

اعلم أن الشهوة والغضب خادمان للنفس جاذبان، يحفظان أمر الطعام والشراب والنكاح لحمل الحواس. ثم النفس خادم الحواس شبكة العقل وجواسيسه، يبصر بها صنائع البارئ جلَّت قدرته. ثم الحواس خادم العقل، وهو للقلب سراج وشمعة يبصر بنوره الحضرة الإلهية؛ لأن الجنة وهي نصيب الجوف أو الفرج محتقرة في جنب تلك الجنة. ثم العقل خادم القلب، والقلب مخلوق لنظر جمال الحضرة الإلهية. فمن اجتهد في هذه الصنعة فهو عبدٌ حق من غلمان الحضرة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾. معناه: أنَّا خلقنا القلب، وأعطيناه المُلك والعسكر، وجعلنا النفس مركبه؛ حتى يسافر عليه من عالم التراب إلى أعلى عليين. فإذا أراد أن يؤدي حق هذه النعمة، جلس مثل السلطان في صدر مملكته، وجعل الحضرة الإلهية قبلته ومقصده، وجعل الآخرة وطنه وقراره، والنفس مركبه، والدنيا منزله، واليدين والقدمين خدامه، والعقل وزيره، والشهوة عامله، والغضب شحنته، والحواس جواسيسه، وكل واحد موكل بعالم من العوالم يجمع له أحوال العوالم. وقوة الخيال في مقدم الدماغ كالنقيب يجمع عنده أخبار الجواسيس، وقوة الحفظ في وسط الدماغ مثل صاحب الخريطة يجمع الرقاع من يد

النقيب ويحفظها إلى أن يعرضها على العقل. فإذا بلغَت هذه الأخبار إلى الوزير يرى أحوال المملكة على مقتضاها.

فإذا رأيت واحدًا منهم قد عصى عليك، مثل الشهوة والغضب، فعليك بالمجاهدة. ولا تقصد قتلهما؛ لأن المملكة لا تستقر إلا بهما. فإذا فعلت ذلك كنت سعيدًا، وأديت حق النعمة، ووجبت لك الخلعة في وقتها. وإلا كنت شقيًّا، ووجب عليك النكال والعقوبة.

فصل

تمام السعادة مبني على ثلاثة أشياء: قوة الغضب، وقوة الشهوة، وقوة العلم.

فيحتاج أن يكون أمرها متوسطًا؛ لئلا تزيد قوة الشهوة فتخرجه إلى الرخص فيهلك، أو تزيد قوة الغضب فتخرجه إلى الحمق فيهلك. فإذا توسطت القوتان بإشارة قوة العلم، دل على طريق الهداية. وكذلك الغضب إذا زاد سهل عليه الضرب والقتل، وإذا نقص ذهبت الغيرة والحمية في الدين والدنيا، وإذا توسط كان الصبر والشجاعة والحكمة. وكذا الشهوة إذا زادت كان الفسق والفجور، وإن نقصت كان العجز والفتور، وإن توسطت كانت العفة والقناعة وأمثال ذلك.

فصل

اعلم أن للقلب مع عسكره أحوالًا وصفات، بعضها يسمى أخلاق السوء، وبعضها أخلاق الحُسن. فبالأخلاق الحسنة يبلغ درجة السعادة، وبالأخلاق السيئة هلاكه وخروجه للشقاء.

وهذه كلها تبلغ أربعة أجناس: أخلاق الشياطين، وأخلاق البهائم، وأخلاق السباع، وأخلاق الملائكة. فأعمال السوء من الأكل والشرب والنوم والنكاح، هي أخلاق البهائم. وكذلك أعمال الغضب من الضرب والقتل والخصومة، هي أخلاق السباع. وكذلك أعمال النفس وهي المكر والحيلة والغش وغير ذلك، هي أخلاق الشياطين. وكذلك أعمال العقل التي هي الرحمة والعلم والخير، هي أخلاق الملائكة.

فصل

واعلم أن في جلد ابن آدم أربعة أشياء: الكلب، والخنزير، والشيطان، والمَلَك.

والكلب مذموم في صفاته، وليس بمذموم في صورته.

وكذلك الشيطان والملائكة، ذمُّهم ومدحهم في صفاتهم، وليس ذلك في صورهم وخَلقهم.

وكذلك الخنزير مذموم في صفاته، وليس بمذموم في خِلقته.

وقد أُمر ابن آدم بأن يكشف ظلم الجهل بنور العقل خوفًا من الفتنة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما من أحد إلا وله شيطان، ولي شيطان، وإن الله قد أعانني على شيطاني حتى ملكتُه».

وكذلك الشهوة والغضب، ينبغي أن يكونا تحت يد العقل، فلا يفعلا شيئًا إلا بأمره. فإن فعل ذلك صح له حسن الأخلاق، وهي صفات الملائكة، وهي بذر السعادة. وإن عمل بخلاف ذلك فخدم الشهوة والغضب، صح له الأخلاق القبيحة، وهي صفات الشياطين، وهي بذر الشقاء. فيتبين له في نومه كأنه قائم مشدود الوسط يخدم الكلب والخنزير، وكان مَثله كمثل رجل مسلم يأخذ رجالًا مسلمين يحبسهم عند كافرين. فكيف يكون حالك يوم القيامة إذا حبست الملك ـ وهو العقل ـ تحت يد الشهوة والغضب، وهما الكلب والخنزير؟

فصل

واعلم أن الإنسان في صورة ابن آدم اليوم، وغدًا تنكشف له المعاني، فتكون الصور في معنى المعاني. فأما الذي غلب عليه الغضب، فيقوم في صورة الكلب. وأما الذي غلب عليه الشهوة، فيقوم في صورة الخنزير؛ لأن الصور تابعة للمعاني. وإنما يبصر النائم في نومه ما صح في باطنه. وإذا عرفت أن الإنسان في باطنه هذه الأربعة، فيجب أن يراقب حركاته وسكناته، ويعرف من أي الأربعة هو، فإن صفاته تحصل في قلبه وتبقى معه إلى يوم القيامة. وإن بقي من جملة الباقيات الصالحات شيء فهو بذر السعادة، وإن بقي معه غير ذلك فهو بذر الشقاء. وابن آدم لا ينفك ولا ينفصل عن حركة أو سكون، وقلبه مثل الزجاج. وأخلاق السوء كالدخان والظلمة، فإذا وصل إليه ذلك أظلم عليه طريق السعادة. وأخلاق الحسن كالنور والضوء، فإذا وصل إلى القلب طهره من ظلم المعاصي، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتبع السيئة الحسنة تمحُها». والقلب إما مضيء أو مظلم، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم.

فصل

واعلم أن الشهوة والغضب اللتين في البهائم جُعلتا أيضًا في ابن آدم، ولكنه أُعطي شيئًا آخر زيادة عليها للشرف والكمال، وبذلك تحصل له معرفة الله تعالى، وجملة عجائب صنعه، وبه يُخَلِّصُ نفسَه من يد الشهوة والغضب، وتحصل له صفات الملائكة، ولذلك يظفر بالسباع والبهائم وتصير كُلُّهَا مُسَخَّرةً له، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾.

فصل في عجائب القلب

اعلم أن للقلب بابين للعلوم: واحدًا للأحلام، والثاني لعالم اليقظة. وهو الباب الظاهر إلى الخارج، فإن نام غُلق باب الحواس، فيُفتح له باب الباطن، ويُكشف له غيب من عالم الملكوت، ومن اللوح المحفوظ، فيكون مثل الضوء، وربما احتاج كشفه إلى شيء من تعبير الأحلام. وأما ما كان من الظاهر، فيظن الناس أن به اليقظة، وأن اليقظة أولى بالمعرفة، مع أنه لا يُبصَر في اليقظة شيء من عالم الغيب، وما يبصر بين النوم واليقظة أولى بالمعرفة مما يبصر من طريق الحواس.

فصل

وتحتاج أن تعرف في ضمن ذلك أن القلب مثل المرآة، واللوح المحفوظ مثل المرآة أيضًا؛ لأن فيه صورة كل موجود، وإذا قابلت المرآة بمرآة أخرى حلت صور ما في إحداهما في الأخرى، وكذلك تظهر صور ما في اللوح المحفوظ إلى القلب إذا كان فارغًا من شهوات الدنيا، فإن كان مشغولًا بها كان عالم الملكوت محجوبًا عنه، وإن كان في حال النوم فارغًا من علائق الحواس طالع جواهر عالم الملكوت، فظهر فيه بعض الصور التي في اللوح المحفوظ. وإذا أغلق باب الحواس كان بعده الخيال؛ لذلك يكون الذي يبصره تحت ستر القشر، وليس كالحق الصريح مكشوفًا. فإذا مات ـ أي القلب ـ بموت صاحبه، لم يبق خيال ولا حواس. وفي ذلك الوقت يبصر بغير وهمٍ وبغير خيال، ويقال له: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾.

فصل

واعلم أنه ما من أحد إلَّا ويدخل في قلبه الخاطر المستقيم، وبيان الحق على سبيل الإلهام. وذلك لا يدخل من طريق الحواس، بل يدخل في القلب، لا يعرف من أين جاء؛ لأن القلب من عالم الملكوت، والحواس مخلوقة لهذا العالم، عالم الملك. فلذلك يكون حجابه عن مطالعة ذلك العالم إذا لم يكن فارغًا من شغل الحواس.

فصل

ولا تظنن أن هذه الطاقة تنفتح بالنوم والموت فقط، بل تنفتح باليقظة لمن أخلص الجهاد والرياضة، وتخلَّص من يد الشهوة والغضب والأخلاق القبيحة والأعمال الرديئة. فإذا جلس في مكان خالٍ، وعطل طريق الحواس، وفتح عين الباطن وسمعه، وجعل القلب في مناسبة عالم الملكوت، وقال دائمًا: «الله، الله، الله» بقلبه دون لسانه، إلى أن يصير لا خبر معه من نفسه ولا من العالم، ويبقى لا يرى شيئًا إلا الله سبحانه وتعالى؛ انفتحت تلك الطاقة، وأبصر في اليقظة الذي يبصره في النوم. فتظهر له أرواح الملائكة والأنبياء والصور الحسنة الجميلة الجليلة، وانكشف له ملكوت السماوات والأرض، ورأى ما لا يمكن شرحه ولا وصفه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «زُويت لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها»، وقال الله عز وجل: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾. لأن علوم الأنبياء عليهم السلام كلها كانت من هذا الطريق، لا من طريق الحواس، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾. معناه: الانقطاع عن كل شيء، وتطهير القلب من كل شيء، والابتهال إليه سبحانه وتعالى بالكلية، وهو طريق الصوفية في هذا الزمان. وأما طريق التعليم فهو طريق العلماء، وهذه الدرجة الكبيرة مختصرة من طريق النبوة. وكذلك علم الأولياء؛ لأنه وقع في قلوبهم بلا واسطة من حضرة الحق، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾. وهذه الطريقة لا تُفهم إلا بالتجربة، وإن لم تحصل بالذوق لم تحصل بالتعليم. والواجب التصديق بها حتى لا تحرم شعاع سعادتهم، وهو من عجائب القلب. ومن لم يبصر لم يصدق، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾، وقوله: ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾.

فصل

ولا تحسب أن هذا خاص بالأنبياء والأولياء؛ لأن جوهر ابن آدم في أصل الخِلقة موضوع لهذا، كالحديد لأن يعمل منه مرآة ينظر فيها صورة العالم، إلا الذي صدأ فيحتاج إلى إجلاء، أو جدبَ فيحتاج إلى صقل أو سبك، لأنه قد تلف. وكذلك كل قلب إذا غلب عليه الشهوات والمعاصي لم يبلغ هذه الدرجة، وإن لم تغلب عليه تلك الدرجة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كل مولود يُولد على فطرة الإسلام»، وقال الله تعالى: ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾. وكذلك بنو آدم في فطرتهم التصديق بالربوبية كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾. والأنبياء والأولياء هم بنو آدم، قال سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾.

فكل من زرع حصد، ومن مشى وصل، ومن طلب وجد.

والطلب لا يحصل إلا بالمجاهدة: طلب شيخ بالغ عارف قد مشى في هذا الطريق، وإذا حصل هذان الشيئان لأحد، فقد أراد الله له التوفيق والسعادة بحكم أزلي حتى يبلغ إلى هذه الدرجة.

فصل في أن اللذة والسعادة لابن آدم
في معرفة الله سبحانه وتعالى

اعلم أن سعادة كل شيء ولذته وراحته تكون بمقتضى طبعه، وطبع كل شيء ما خُلق له.

فلذة العين في الصور الحسنة، ولذة الأذن في الأصوات الطيبة، وكذلك سائر الجوارح بهذه الصفة. ولذة القلب الخاصة بمعرفة الله سبحانه وتعالى؛ لأنه مخلوق لها. وكل ما لم يعرفه ابن آدم إذا عرفه فرح به، مثل لعبة الشطرنج، إذا عرفها فرح بها، ولو نُهي عنها لم يتركها ولا يبقى له عنها صبر. وكذلك إذا وقع في معرفة الله سبحانه وتعالى، فرح بها، ولم يصبر عن المشاهدة؛ لأن لذة القلب المعرفة. وكلما كانت المعرفة أكبر كانت اللذة أكبر. ولذلك فإن الإنسان إذا عرف الوزير فرح، ولو علم الملك لكان أعظم فرحًا.

وليس موجود أشرف من الله سبحانه وتعالى؛ لأن شرف كل موجود به ومنه، وكل عجائب العالم آثار صنعته، فلا معرفة أعز من معرفته، ولا لذة أعظم من لذة معرفته، وليس منظر أحسن من منظر حضرته.

وكل لذات شهوات الدنيا متعلقة بالنفس، وهي تبطل بالموت. ولذة معرفة الربوبية متعلقة بالقلب، فلا تبطل بالموت؛ لأن القلب لا يهلك بالموت، بل تكون لذته أكثر، وضَوؤه أكبر؛ لأنه خرج من الظلمة إلى الضوء.

فصل

واعلم أن نفس ابن آدم مختصرة من العالم، وفيها من كل صورة في العالم أثر منه؛ لأن هذه العظام كالجبال، ولحمه كالتراب، وشعره كالنبات، ورأسه مثل السماء، وحواسه مثل الكواكب. وتفصيل ذلك طويل.

وأيضًا فإن في باطنه صناع العالم؛ لأن القوة التي في المعدة كالطبَّاخ، والتي في الكبد كالخبَّاز، والتي في الأمعاء كالقصَّار، والتي تُبيِّض اللبن وتحمِّر الدم كالصبَّاغ. وشرح ذلك طويل.

والمقصود أن تعلم كم في باطنك من عوالم مختلفة كلهم مشغولون بخدمتك، وأنت في غفلة عنهم، وهم لا يستريحون، ولا تعرفهم أنت، ولا تشكر من أنعم عليك بهم.

فصل في معرفة تركيب الجسد
ومنافع الأعضاء التي يقال عنها
في علم التشريح

وهو علم عظيم، والخلق غافلون عنه، وكذلك علم الطب.

فكل من أراد أن ينظر في نفسه، وعجائب صنع الله تعالى فيها، يحتاج إلى معرفة ثلاثة أشياء من الصفات الإلهية: الأولى: أن يعرف أن خالق الشخص قادر على الكمال وليس بعاجز، وهو الله سبحانه وتعالى. وليس عمل في العالم بأعجب من خلق الإنسان من ماء مهين، وتصوير هذا الشخص بهذه الصورة العجيبة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ ﴾. فإعادته بعد الموت أهون عليه؛ لأن الإعادة أسهل من الابتداء.

الثانية: معرفة علمه سبحانه وتعالى، وأنه محيط بالأشياء كلها؛ لأن هذه العجائب والغرائب لا تمكن إلا بكمال العلم.

الثالثة: أن تعلم أن لطفه ورحمته وعنايته متعلقة بالأشياء كلها، وأنها لا نهاية لها؛ لما ترى في النبات والحيوان والمعادن من سعة القدرة وحسن الصور والألوان.

فصل في تفصيل خِلقة بني آدم
لأنها مفتاح معرفة الصفات الإلهية
وهو علم شريف

وذلك معرفة عجائب الصنائع الإلهية، ومعرفة عظم الله سبحانه وتعالى وقدرته، وهو مختصر معرفة القلب.

وهو علم شريف؛ إذ هو معرفة الصنائع الإلهية، لأن النفس كالفرس، والعقل كالراكب، وجماعهما الفارس. ومن لم يعرف نفسه وهو يدَّعي معرفة غيره، فهو كالرجل المفلس الذي ليس له طعام لنفسه وهو يدَّعي أنه يقوت فقراء المدينة، فهذا محال.

فصل

إذا عرفت هذا العز والشرف والكمال والجمال والجلال، بعد أن عرفت جوهر القلب أنه جوهرٍ عزيز، قد وهب لك، وبعد ذلك خفي عنك، فإن لم تطلبه وغفلت عنه وضيَّعته، كان ذلك حسرة عظيمة عليك يوم القيامة. فاجتهد في طلبه، واترك أشغال الدنيا كلها.

وكل شرف لم يظهر في الدنيا، فهو في الآخرة فرح بلا غم، وبقاء بلا فناء، وقدرة بلا عجز، ومعرفة بلا جهل، وجمال وجلال عظيمان. وأما اليوم، فليس شيء أعجز منه؛ لأنه مسكين ناقص. وإنما الشرف غدًا، إذا طرح من هذه الكيمياء على جوهر قلبه، حتى يخلص منه شبه البهائم، ويبلغ درجة الملائكة. فإن رجع إلى شهوات الدنيا، فضلت عليه البهائم يوم القيامة؛ لأنها تصير إلى التراب، ويبقى هو في العذاب.

نعوذ بالله من ذلك، ونستجير به، وهو نِعم المولى ونعم النصير.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الرسالة الوعظية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لقد بلغني على لسان من أثق به سيرة الشيخ الإمام الزاهد ـ حرس الله توفيقه وسمره في مهم دينه ـ ما قوَّى رغبتي في مؤاخاته في الله تعالى رجاء لما وعد الله به عباده المتحابين. وهذه الأخوة لا تستدعي مشاهدة الأشخاص وقرب الأبدان، وإنما تستدعي قرب القلوب وتعارف الأرواح، وهي جنود مجندة، فإذا تعارفت ائتلفت. وها أنا عاقد معه الأخوة في الله تعالى، ومقترِحٌ عليه أن لا يخليني عن دعواتٍ في أوقات خلوته، وأن يسأل الله تعالى أن يُريني الحق حقًّا ويرزقني اتباعه، وأن يريني الباطل باطلًا ويرزقني اجتنابه. ثم

قرع سمعي أنه التمس مني كلامًا في معرض النصح والوعظ، وقولًا وجيزًا فيما يجب على المكلَّف اعتقاده من قواعد العقائد.

وعظ النفس

أما الوعظ، فلستُ أرى نفسي أهلًا له؛ لأن الوعظ زكاة نصابها الاتعاظ، ومن لا نصاب له كيف يُخرج الزكاة؟ وفاقد النور كيف يستنير به غيره؟ «ومتى يستقيم الظل والعود أعوج؟».

وقد أوحى الله تعالى إلى عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم: «عظ نفسك، فإن اتعظت فعِظِ الناس، وإلا فاستحي مني».

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم: «تركت فيكم واعظين: ناطقًا، وصامتًا». فالناطق هو القرآن، والصامت هو الموت. وفيهما كفاية لكل متعظ، ومن لا يتعظ بهما فكيف يعظ غيره؟ ولقد وعظت بهما نفسي، فصَدقَتْ وقبلتْ قولًا وعقلًا، وأبت وتمردت تحقيقًا وفعلًا. فقلت لنفسي: أما أنتِ مصدقة بأن القرآن هو الواعظ الناطق، وأنه الناصح الصادق، فإنه كلام الله المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟ فقالت: نعم. قال الله تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾. فقد وعدكِ الله تعالى بالنار على إرادة الدنيا، وكل ما لا يصحبكِ بعد الموت فهو من الدنيا، فهل تنزهتِ عن إرادة الدنيا أو حبها؟ ولو أن طبيبًا نصرانيًّا وعدكِ بالموت أو المرض على تناولكِ ألذَّ الشهوات لتَحاشيتها واتَّقيتها، أكان النصراني عندكِ أصدق من الله تعالى؟ فإن كان ذلك فما أكفركِ! أوَكان المرض أشد عندكِ من النار؟ فإن كان ذلك فما أجهلكِ! فصدقت ثم ما انتفعت، بل أصررت على الميل إلى العاجلة واستمررت.

ثم أقبلتُ عليها فوعظتها بالواعظ الصامت، فقلت: قد أخبر الناطق عن الصامت إذ قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾. وقلت لها: هَبي أنكِ مِلتِ إلى العاجلة، أفلسَتِ مُصدِّقة بأن الموت لا محالة آتيكِ، وقاطعٌ عليكِ كل ما أنتِ متمسكة به، وسالب منكِ كلَّ ما أنتِ راغبةٍ فيه، وكلُّ ما هو آتٍ قريب، والبعيد ما ليس بآتٍ، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾. أفأنتِ مخرجة هذا عن جميع ما أنتِ فيه؟ والحُر الحكيم يَخرج من الدنيا قبل أن يُخرج منها،

واللائم يتمسك بها إلى أن يخرج من الدنيا خائبًا خاسرًا متحسرًا. فقالت: صدقتَ. فكان ذلك منها قولًا لا تحصيل وراءه؛ إذ لم تجتهد قَطُّ في التزود للآخرة كاجتهادها في تدبير العاجلة. ولم تجتهد قَطُّ في رضاء الله تعالى كاجتهادها في رضاها، بل كاجتهادها في طلب الخلق. ولم تَستحِ قَطُّ من الله تعالى كما تستحي من واحد من الخلق. ولم تُشمِّر للاستعداد للآخرة كتشميرها للصيف. فإنها لا تطمئن في أوائل الشتاء ما لم تَفرغ من جميع ما تحتاج إليه من آلاته، مع أن الموت ربما يختطفها، والشتاء لا يدركها، والآخرة على يقين لا يتصور أن يختطف منها. وقلتُ لها: ألا تَستعدِّين للصيف بقدر طوله، وتصنعين آلة الصيف بقدر صبرك على الحَر؟ قالت: نعم. قلت: فاعصي الله بقدر صبركِ على النار، واستعدِّي للآخرة بقدر بقائكِ فيها. فقالت: هذا هو الواجب، الذي لا يُرخص في تركه إلا الأحمق. ثم استمرتْ على سجيتها، فوجدتني كما قال بعض الحكماء: «إن في الناس من يموت نصفه ولا ينزجر نصفه الآخر»، وما أُراني إلا منهم. ولما رأيتها متمادية في الطغيان غير منتفعة بوعظ الموت والقرآن، رأيتُ أهم الأمور التفتيش عن سبب تماديها مع اعترافها وتصديقها، فإن ذلك من العجائب العظيمة، فطال عليه تفتيشي، حتى وقفتُ على سببه.

وها أنا مؤنس وإياه بالحذر منه. فهو الداء العضال، وهو السبب الداعي إلى الغرور والإهمال، وهو اعتقاد تراخي الموت، واستبعاد هجومه على القرب. فإنه لو أخبره صادق في بياض نهاره أنه يموت في ليلته، أو يموت إلى أسبوع أو أشهر؛ لاستقام على الطريق المستقيم، ولَترك جميع ما هو فيه مما يظن أنه مما يتعاطاه لله تعالى ومغرور فيه، فضلًا عما يعلم أنه ليس لله تعالى. فانكشف تحقيقًا أن من أصبح وهو يأمل أن يُمسي، أو أمسى وهو يأمل أن يُصبح؛ لم يخلُ من الفتور والتسويف، ولم يَقدر إلا على سير ضعيف. فأُوصيه ونفسي بما أوصى به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: «صلِّ صلاة مودِّع». وقد أُوتي جوامع الكَلِم، وفَصْلَ الخطاب. ولا ينتفع بوعظ إلا به، فمن غلب على قلبه في كل صلاة أنها آخر صلاته، حضر معه قلبه في الصلاة، وتيسَّر له الاستعداد بعد الصلاة. ومن عجز عن ذلك فلا يزال في غفلة دائمة وغرور مستمر وتسويف متتابع، إلا أن يدركه الموت، فتدركه حسرة الفوت. وأنا مُقترِح عليه أن يسأل الله تعالى أن يرزقني هذه الرتبة؛ فإني طالب لها، وقاصر عنها. وأوصيه أن لا يرضى من نفسه إلا بها، وأن يحذر من مواقع الغرور. فإذا وعَدَتِ النفس بذلك طالَبَها بموثق غليظ من الله تعالى، فإن خداع النفس لا يقف عليه إلا الأكياس.

وأما أقل ما يجب اعتقاده على المكلَّف، فهو ما يترجمه قوله: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». ثم إذا صدَّق الرسولَ فينبغي أن يُصدقه في صفات الله تعالى، فإنه حيٌّ قادر عالِم متكلِّم مريد، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير،

وليس عليه بحثٌ عن حقيقة هذه الصفات. وأن الكلام والعلم وغيرهما، قديم أوحادث، بل لو لم تخطر له هذه المسألة حتى مات، مات مؤمنًا، وليس عليه تعلُّم الأدلة التي حررها المتكلمون. بل كلما حصل في قلبه التصديق بالحق بمجرد الإيمان من غير دليل وبرهان فهو مؤمن. ولم يكلِّف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أكثر من ذلك.

وعلى هذا الاعتقاد المجمل استمرت الأعرابُ وعوامُّ الخَلق إلا من وقع في بلدة يقرع سمعه فيها هذه المسائل، مقدم الكلام وحدوثه ومعنى الاستواء والنزول وغيره. فإن لم يأخذ ذلك قلبه وبقي مشغولًا بعبادته وعمله فلا حرج عليه، وإن أخذ ذلك بقلبه فأقلُّ الواجبات عليه ما اعتقده السلف، فيعتقد في القرآن القِدم، كما قال السلف: «القرآن كلام الله غير مخلوق». ويعتقد أن الاستواء حق، والسؤال عنه مع الاستغناء بدعة، والكيفية فيه مجهولة. فيؤمن بجميع ما جاء به الشرع إيمانًا مجملًا، من غير بحث عن الحقيقة والكيفية. فإن لم ينفعه ذلك وغلب على قلبه الإشكال والشك، فإن أمكن إزالة شكه وإشكاله بكلام قريب من الإفهام، وإن لم يكن قويًّا عند المتكلمين ولا مَرضيًّا عندهم؛ فذلك كافٍ، ولا حاجة به إلى تحقيق الدليل، بل الأَوْلى أن يُزال إشكاله من غير برهان حقيقة الدليل؛ فإن الدليل لا يتم إلا بدرك السؤال الجواب عنه. ومهما ذكرت الشبهة فلا يبعد أن ينكر بقلبه ويكِل فهمه عن دَرْك جوابه؛ إذ الشبهة قد تكون جليَّة والجواب دقيقًا لا يحتمله عقلُه. ولهذا زجر السلفُ عن البحث والتفتيش عن الكلام، وإنما زجروا عنه لضعفاء العوام.

وأما المشتغلون بدرك الحقائق فلهم خوض غَمرة الإشكال، ومنع الكلام للعوام يجري مجرى منع الصبيان من شاطئ نهر دجلة خوفًا من الغرق، ورخصة الأقوياء فيه تضاهي رخصة الماهر في صنعة السباحة، إلا أن ها هنا موضع غرور ومزلَّة قَدم. وهو أن كل ضعيف في عقله ـ راضٍ من الله تعالى في كمال عقله ـ يظن بنفسه أنه يقدر على إدراك الحقائق كلِّها، وأنه من جملة الأقوياء، فربما يخوضون فيغرقون في بحر الجهات حيث لا يشعرون.

فالصواب للخلق كلهم إلا الشاذ النادر، الذي لا تسمح الأعصار إلا بواحد منهم أو اثنين، سلوكُ مسلك السلف في الإيمان بالرسل، والتصديق المجمل بكل ما نزَّله الله تعالى، وأخبر به رسوله، من غير بحث وتفتيش عن الأدلة. بل الاشتغال بالتقوى عليه شغل شاغل؛ إذ قال صلى الله عليه وسلم حيث رأى أصحابه يخوضون، بعد أن غضب حتى احمرَّت وجنتاه: «أبهذا أُمرتم، تَضربون كتاب الله بعضه ببعض؟! انظروا ما أمركم الله به فافعلوا، وما نهاكم عنه فانتهوا».

فهذا تنبيه على المنهج الحق، واستيفاء ذلك شرحناه في كتاب «قواعد العقائد»، فيطلب منه. والسلام.

(*) بيت شعر فارسي، معناه: أنك لو كِلت الخمر ألفي مرَّة، فما دمت لم تشربها لن تحصل على النشوة (الناشر).